فُسحة قلَم

مجموعة مقالات



اسم الكتاب: فُسحة قلَم..

التأليف: لطيفة أسير

موضوع الكتاب: مجموعة مقالات

عدد الصفحات: 168 صفحة

عدد الملازم: 10.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 259 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 535 - 3

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 - 01012355714

1437 هـ
2016م





فُسحة قلَم

مجموعة مقالات

لطيفة أسير





اصْبُبْ ماء الصدق على كلّ أحوالكِ
و امضِ حيثُ تُؤمر.. ولا تعْتبْ على من
أساء الفهم؛ فليس كل الناس تُجيد القراءة.

لطيفة أسير

إهداء

إلى أحلامي المغرّدة في فضاء المستحيل
هَلُمّي؛ فقد صَدحت بلابلُ الأفـراح
وانْبَلج فجْر اليقين وهلّت تباشير الصباح

تقديم الأديب الأريب
ربيع السملالي

بين يديّ كتاب يضمّ بين دفّتيه مقالات تربوية علمية أدبية، كُتب بقلم أنثوي حرّ، هدفه الخير ورسالته نفعُ الأمّة ودفعها إلى ما فيه التّقدم والصّلاح، طلبت إليّ صاحبته الأستاذة الخلوقة "لطيفة أسير" أن أقرأه وأعلّق عليه إن كان يستحقّ ذلك، وإلا فيُطوى ولا يُروى، ويُستر كما تُستر العورات. وهذا من تواضعها كما عهدتها جزاها الله خيرًا؛ فقد قرأتُ الكتاب كله قراءة متأنيّة فوجدته حافلًا بالخير والحبّ والجمال، خاليًا من النتوءات التي قد يتعثّر بها القارئ ولا يجد في نفسه نشاطًا لإكماله كما هو الشأن بالنسبة لكثير من كتابات أهل العصر. شعرتُ وأنا أُطالع كتابها هذا – الذي أسأل الله أن يكتب له القبول – بصدق الكلمة وقوتها ووضع العبارة في المكان المناسب لها، والمضامين الرّاقية التي تستحق الإشادة والتنويه. متجنّبة فيها الرّمز والغموض والاستخفاف بالقارئ؛ فلن تجد بين حروفها طلاسم كطلاسم الحلّاج في القديم أو أدونيس في العصر الحديث؛ فهي في مقالاتها تنحو منحى إسلاميًّا صرفًا لا تجد فيه عوجًا ولا

أمْتًا. وهذا ما يميّزها حتى في كتاباتها المختصرة على المواقع التواصلية على الشّبكة، فمُذ قرأتُ لها من سنوات خلت وأنا أقول: لا بدّ أن يصل صوت هذه الأستاذة إلى النّاس في يوم من الأيّام لإخلاصها، وصدقها، واجتهادها في الكتابة والقراءة؛ فهي منشغلة بالتدريس صباح مساء، وكانت تُعاني من مرض يلمّ بها بين الفينة والأخرى، ورغم ذلك استطاعت وسط هذا الرّكام من الانشغالات وصروف الدّهر أن تلبّي حاجاتها الفكرية قراءة وكتابة لله درّها. وصدق أبو الطيّب حين قال:

وإذا كانت النّفوس كبارًا تعبتْ في مُـرادهـا الأجسامُ



مقدمة الكتاب

على مرّ التاريخ الإنساني ظلّت الأنثى محور الحديث في كثير من الخطابات مدحًا وقدحًا، فبَيْن منتصرٍ لها، رافع لشأنها، حامدٍ لخصالها، مترفّع عن التنقيص من قدْرها؛ ومتحاملٍ عليها، كارهٍ لوجودها يسومها سوء العذاب ويعتبرها كائنًا فاقدًا للأهلية يُساق ولا يحق له أن يتلمّس معابر النور بعيدًا عن توجيهات أولي الأمر. وثالثٍ لا يرى فيها غير الجسد والمتعة، جعلها سلعة رخيصة تُباع وتُشترى وأداة محضة للغواية والإغراء، كما تنادي بذلك بعض الذئاب البشرية التي ألغتْ من قاموسها كل قيم الحياء والمروءة، وامتهنت بسياستها البغيضة هذا الكائن الجميل.

أمام هذه الخطابات المتنوعة والتناول المتباين للشأن النسوي؛ يبقى للأنثى أن تدْحض هذه الشبهات وتفنّدها، أو ترسّخها وتدعم ادّعاءات قائليها حسب ما تختاره لنفسها من سداد أو اعوجاج، لكن الأنثى الأبيّة لا تملك إلا أن تثور ضد كل من يحاول إلغاء كينونتها، أو بخس قدراتها الفكرية والإبداعية. ومن واجب الأنثى الكاتبة أن تجعل يراعها سلاحها الذي تكشف به تلبيسات المناهضين لتحركاتها، السّاعين لتحجيم دورها في الحياة. فالقلم بيدكِ أيتها الأنثى الكاتبة ليس إكسسوارًا مكمِّلًا لزينتك

كاشفًا فنونَ أنوثتك؛ بل هو مسؤولية جسيمة تخوضين غمارها لتثبتي (للآخر) أنك كائن مفكر وقادر على صناعة القرار بخوضك غمار كل المواضيع التي تؤرق مجتمعك وأمتك، وإفصاحك عن رؤاك الخاصة في إصلاح مجتمعٍ يقولون إنك نصفه الأول، وتتحملين مسؤولية تنشئة نصفه الآخر.

من هذا المنطلق أحببت أن أجعل كتابي "فُسحة قلم" يتعالى عن تلك النظرة الدونية السطحية لإبداع الأنثى واهتماماتها، فيمتاح من شتى المواضيع الدينية والاجتماعية والتربوية والأدبية. ويدلي بدلوه في بعض القضايا التي كانت تقضّ فكري وتحركه للتعبير عن مكنوناته- وإن بدَا أنّه لن يغير من الواقع شيئًا- لكن يكفي أن تكون صرخة من أنثى أحبّت أن تعبر عن خواطرَ راودتها ذات لحظاتٍ فلم تجد غير اليراع متنفّسًا والكتابة مؤنسًا. ولَئن كان الإبداع الذكوري قد سيطر وهَيْمن على الساحة الإبداعية منذ أمَد؛ فإن هذا لا يلغي قيمة أدب المرأة ولا ينفي الجودة عنه؛ لذا وجب أن نقف احترامًا له ونسعى لاحتوائه ورفع الاضطهاد الممارس عليه. وكما قال ديكارت: "اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر، وإنما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا بطريقة مختلفة".

ولأن الشكر سِمة كل ذي خُلق ومروءة؛ فإني أحب أن أوجه شكري وامتناني لكل من آزر هذا القلم لينتصب قائمًا ويهبّ من سباتٍ عميقٍ.

وأخصّ بالذِّكر الأديب المغربي الأريب ربيع السملالي الذي كان من أكثر المؤمنين به والداعمين لتوجهه خاصة في مجال كتابة المقالة. وأُثَنِّي بشكر المنابر الصحفية التي منحتني ثقتها، وأذِنت لحروفي أن تكون ضيفة بين كُتابها وأدبائها وفي مقدمتها جريدة السبيل المغربية، وكذا بعض المواقع الإلكترونية التي لها وزنها وقيمتها المعرفية والدينية كموقع الألوكة وموقع طريق الإسلام والمختار الإسلامي وهوية بريس. وأَملي أن تبقى هذه الحروف البسيطة في مسلكها، الصادقة في نبضها؛ ذكرى لكل من عرفني عساها تكون بديلًا عن غيابي ذات يومٍ.



قراءة في كتاب "أفكارٌ على ضِفاف الانكسار"

في عصر "الإسهال في التأليف" تُطالعنا كلّ حين كتبٌ تقتحم شتّى المجالات الإنسانية، وتتنوع تنوع الأجناس الأدبية، بين أقلام أَلِفها القارئ ودأَبَ على النّهل من قريحتها وترقُّبِ جديدها، وأقلام حديثة تبحث عن موطئ قدمٍ لها في الساحة الأدبية.

بيْد أن الأدباء الناشئين مهما ارتقت إبداعاتهم لا تجد صدى يوازي ذاك الجهد الذي بذلوه ليبزغ فجر وليدهم الجديد، فتتكسّر مجاديفهم ويعلو الصدأ أقلامهم؛ لأنه لم يَأبه لهم إلا شرذمة من الناس. بخلاف الأقلام التي صادقت الإعلام فإن إبداعاتها تتلقفها الأيدي مهما كانت سطحية أو اعتراها الكثير من الشّطط.

فغالبًا ما نطالع كتابات لأقلام لها ثقلها في الساحة الأدبية، لكن سرعان ما تفتر همّة القارئ وهو يتنقل بين سطورها، إما لزيغ في التوجه الفكري للكاتب، أو رتابة في الأسلوب، أو سطحية في معالجة الموضوع.

وإلى زمن قريب كنتُ أعتقد أن التأليف أمر عسير وشديد، فأيقنتُ بعد

فترة أن صعوبة التأليف تلازمها صعوبة في التوزيع. فبَعْد مشقة الإنجاب؛ يجد الكاتب المبتدئ نفسه وحيدًا تتقاذفه الرياح وقد حمل فوق كاهله همّ التعريف بوليده الذي أتاه بعد عسر. وبدل أن تسارع القنوات الإعلامية لاحتضان هذه الأقلام المبدعة، نجدها تتهافت على التوافه في كل مجال، فتخسر الأمة بذلك الكثير من مبدعيها الذين يغرقون في لُجة هذا اليَمّ متلاطمِ الأمواج دون رأفة بدقّة عودهم وحداثة أقلامهم. مع أن بعضها يبدأ شامخًا كما هو حال الأديب المغربي المبدع ربيع السملالي.

إذ إنَّ المتتبع لكتاباته في الملتقيات الأدبية وكذا صفحاته الأدبية على (الفيس بوك)، يلاحظ سِعة اطّلاع الرجل على شتى المعارف الأدبية، وامتلاكه لناصية الإبداع من خلال سبره أغوار الكثير من الكتب سواء في اللغة أو النحو أو البلاغة أو الأدب بل حتى العلوم الشرعية. إذ إنَّ دراسته لهذه العلوم سبقت تفرغه للأدب فضمِن بذلك حصانة جميلة لقلمه تجعل إبداعاته في منأى عن الانحرافات العقدية والدينية؛ كما حدّث عن ذلك بنفسه في مقالته الجميلة "أسباب تعلقي بالأدب": (ورغم ما واجهتُ من نتوءات في طريقي وأنا أطالع بعض كتب المنحرفين الذين ينتسبون للأدب، فإنّني بحمد الله لم أتأثّر بما يلقون من شبهات وأفكار خطيرة من خلال كلامهم النّاعم، وأسلوبهم الخلَّاب؛ فأيقنتُ أنّ الله تعالى قد أحسن إليّ الإحسانَ كلّه، إذ لم يجعلني أتوجّه لعالم الأدب مباشرة وأنا أجهلُ من الحُمُر الأهلية،

ولو وكلني إلى نفسي هذه الأمّارة بالسوء لكنت الآن أسبّح بحمد الزّنادقة والكافرين بكرة وأصيلًا بدعوى الإبداع وحرّية الفكر والتّعبير، كما هو حال الكثيرين من أبناء جلدتنا الذين تُرهبهم الأسماء الرّنانة؛ التي تملأ السّاحة الأدبية فسقًا وفجورًا، واستهزاءً وسخرية بديننا الحنيف).

وقد أنصفه الكاتب رياض الدحايرة حين قال: (نصوص ربيع عمومًا تَشِي بثقافة أدبية واسعة، واطّلاع متين على دُرَر الأدب العربي؛ ويبدو ذلك واضحًا في التناصات العديدة في نصوص ربيع.. تناصات تفضحُ سعة بَاعِه الأدبي، وهَوسِه في حفظ الدرر الأدبية وتوظيفها في قلمه. وإذ نتعمق أكثر في هذه النصوص لتروعنا هذه التراكيب السليمة الفصيحة الجميلة، وتأسرنا التصاوير البديعة التي يُحسن قلم "ربيع" خبزها في فرن الإبداع لتخرج لنا شهية بهية رائقة الحسن والجمال، ومبتكرة!!).

وقد رأى النور مؤخرًا إصداره الأدبي الأول "أفكارٌ على ضفاف الانكسار" فكان فاتحة خير استبشر بها كل متتبعيه بالفضاء الأزرق، وسارع الكثير لاقتنائه. وهو كتاب بديع بأفكاره وأسلوبه وتنوع مواضيعه، سلك فيه الأديب مسلكًا يواكب طبيعة القراءة في عصرنا، التي تميل إلى الاختصار وتنفرُ من الإطالة المُمِلة، مقتديًا بمنهج السلف في بعض تآليفهم. إذ إنَّ الكتاب يشبه في تنسيقه كتاب "صيد الخاطر" للعلامة ابن الجوزي، نحَا فيه صاحبه نفس المنحى، فساق مجموعة من الخواطر اقتنصها قلمه في لحظات

متفرقة من حياته (تُوحي بِحِسٍّ رهيف في كبرياء شريف)، كما صرّح بذلك شيخه الشاعر الأديب محمد بن إدريس بلبصير في تقديمه للكتاب.

وقد ضمّ الكتاب بين دفتيه خواطر جمعت بين جمال اللغة الذي افتقدته الكثير من الإبداعات النثرية المعاصرة، وصِدق المعالجة للمواضيع المطروحة. مع دقة في الوصف وبراعة في انتقاء المفردات وتميز في عرض الصور البلاغية التي تناسب كل مقام، ووعي بخبايا الحياة يجعلك تتخيل أن الرجل قد جاوز سن الكهولة وتمرّس في كل شِعب من شعب الحياة وما هو إلا ابن الثلاثين ربيعًا. خواطر راقية عبرتْ ممرات شتّى قبل أن تصافحها عين القارئ، إذ الكتابة عند "ربيع" عملٌ مقدسٌ تواكبه طقوسٌ خاصة كما يعترف بذلك: (إذا خطرت لي الفكرة أجعلها تنمو في رأسي بهدوء، حتى إذا أحسست باكتمالها ألبستها ثوبًا لغويًّا يليق بها، بعدما أطهِّرُها بقليل من مياه البلاغة والبديع على نهر الواقعية الذي لا غموض فيه ولا التباس، معطرًا إياها بعبير الصدق وشذَا الإخلاص).

ولأن الحرف غالبًا ما يكون مرآة لصاحبه، فقد عكست "أفكار على ضفاف الانكسار" كثيرًا من شخصية هذا الكاتب المبدع؛ إذ إنَّ ذاته حاضرة بقوة في كثير من خواطره، فتراهُ تارة يتحدث عن ذكريات طفولته وحيّه الذي ترعرع فيه بين (أصدقائه الصغار الأشاوس الذين كانوا قليلًا من الليل ما يهدؤون)، وتارة عن مواقفه التي تعْرض له في الحياة سواء في عالمه

الواقعي أو الافتراضي، وطورًا يسمح لنا بالولوج إلى أعماق نفسه فيحكي تذمره من واقع يسبح ضد تياره الإبداعي فيغرقه في دوامة من الحزن والكآبة (أحس بالمرارة وأنا أتجرّع من كأس الحياة ثمالتها، وأشعر بهذا الواقع الجافّ يلتهم ويأكل بِنهم إرادتي.. همتي.. وطموحي).

بيْنًا تلمحهُ متفائلًا ينظر للحياة نظرة محب عاشق ويكاد يعانق كل الكائنات بروحه قبل قلمه (قلبي مترع بالآمال مفعم بالتفاؤل مليء بالأحلام عامر بالأماني ولا مكان فيه للون الرمادي). وتارة يبدو كئيبًا قد أسكنت الهموم فيه كل متحرك، وخَبَتْ جذوة الفرح في كل نبضٍ من نبضات قلبه (جلستُ على عتبة الوقت أترنّح منتظرًا بزوغ فجر صادق ينتشلني من ضياعي الآثم، وانصياعي الأحمق للفراغ الكئيب الذي يتسلق جدران رتابتي والملل،كطيور النورس التي لا يطيب لها التحليق إلا في سماء الشواطئ المهجورة).

وبين ثنايا هذه الحروف تلمس شموخًا واعتزازًا بالذات (أحب في كل أموري أن أكون أنا وأكره أن أكون أنت، ولكل وجهة هو موليها). وثباتًا على قيم الإبداع الحر الذي يأبى الخنوع للآخر (لا ولن ألتمس مواطن الرضا من قلوب القراء، وأنا أكتب وأذيع بنات أفكاري بينهم.. يكفيني التزام الصدق وإيصال المعلومة كما هي.. لا ولن أنافق على حساب ديني ومبادئي).

وتلمح وأنت تتفيأ ظلال هذه الخواطر الربيعية ذاك الأب الرحيم الذي يحدب على أولاده ويكاد يتمزق قلبه كمدًا كلما ألمّ بهم أذى فيقول: (عندما يمرض أحد أبنائي أستحيل إلى كومة من المشاعر المضطربة، تفرّ مني خشونتي المعهودة فرارها من غريم، تحتلني رقة لا عهد لقلبي بها من قبل). وقد خصّ لكل فلذة من فلذات كبده خاطرة تكشف عن مكانته في قلبه، وإن كان آخر العنقود "أسامة" قد استأثر بنصيب الأسد من مشاعره، بل أضحى وقود حياته الذي يحفزه على الصبر وتحمل كل المشاقّ.

ولأن عشق ربيع السملالي للكتاب فاق كل وصف، ولِيَقينه أن نهضة الأمة لن تستقيم إلا بالقراءة، فستلاحظ كثرة تحفيزه للناس على التحصيل العلمي من خلال رسم تلك العلاقة الحميمية بين القارئ والكتاب. إذ الكتاب بالنسبة له يأتي في مقدمة اللذات التي تبهج فؤاده، وهو من أجمل الهدايا التي يمكن أن تصادف هوى في فؤاده، وَوَلَهُه به عجيبٌ فريدٌ في عصرنا، خصوصًا بالنسبة لشاب في مقتبل العمر: (عندما أرى كتابًا لا يوجد عندي أفقد حاسة السمع والبصر، بل أفقد حاسة الزمان والمكان وأصير كريشة في مهبّ الريح لا أنصرف عنه إلا وقد تأبطته ولو بجدع الأنف)، ويقول في موضع آخر: (فللورق في قلبي محبة لا يعدلها إلا محبة قيس لِلَيلاه أو جميل لِبُثيناه). بل إن ظفره بالكتاب يجعل قلبه يرقص بشكل طفولي كما هو الحال يوم اقتنائه لفتاوى ابن تيمية أو الجوهرة الأدبية الراقية "فيض الخاطر".

وإعارة الكتب لمن لا يستحق ضربٌ من ضروب السّفه بالنسبة له، وفي هذا المقام يقول محرّضًا: (.. فتنبهوا يا معشر الطلاب وكونوا حريصين على الكتاب كحرص العذراء على شرفها أو أشد؛ ففقْد الكتاب كفقد الصواب).

وقد أبدَى في كتابه أسَفَه الشديد لتقديم مشروع الزواج على التفرغ للعلم وطلبه؛ لأن مسؤولياته الكثيرة تقف حجر عثرة أمام كل عاشق للبحث العلمي (لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لما تزوجت قبل الانتهاء من التحصيل والإفادة.. ولكن قدر الله وما شاء فعل).

ولم يبخل الأديب على قرائه بالنصح والتوجيه، فأشار في بعض خواطره إلى أنجع المسالك لكل طالب للعلم وراغب في التأليف، وحثّ على كتب وروايات بعينها مثل "ليل وقضبان" للرائع نجيب الكيلاني، و"كشف المحجوب" للدكتور الأديب فريد الأنصاري ورواية "كوخ العم توم" للروائية الأمريكية هارييت بيتشر ستو. دون أن يغفل الحديث عن جهابذة العلم والأدب الذين تربّى بين أحضان حروفهم الباذخة، كابن تيمية وابن الجوزي والعقاد والمنفلوطي والمتنبي.

كما حضَّ على نشر الكلمة الطيبة المنضبطة بضوابط الشرع والذوق السليم من خلال استنكاره لبعض الظواهر الشاذة في الكتابات الأدبية كاستباحة قبيح القول بدعوى الإبداع (لا تكن وقحًا وأنت تكتب ما يمليه عليك شيطان إبداعك، واستر عورة حرفك كما تستر سيئاتك، واجعل

لباس التقوى سربالًا لموضوعاتك). وانتقدَ كباحث بعض الكتب للتحذير من شرها ككتاب "طبقات الصوفية" وكشف ما به من ترهات.

وكان للغة العربية حظ ونصيب في هذا الإصدار؛ حيث حثّ الكاتب على تعلمها والغوص في بحورها الجميلة وأثنى عليها الثناء كله، ومن أجمل ما أبدعه في هذا المقام قوله (اللغة العربية كصَبِيّة غضّة الإهاب، بارعة الجمال وسامقة القوام، إنْ وجدت فحْلًا كريمًا كانت به أجمل وأسعد، وإن وجدت عِنِّينًا فيَا لضياع جمالها وروعتها وقوامها في أحضان ركاكته وسوء أسلوبه).

أما المرأة فقد كان لها حضور جميل بين دفتي الكتاب أُمًّا، وبنتًا، وزوجة، وكائنًا خرافيًّا يغازل طيفه كلما جنّ عليه ليل الكآبة؛ فتراه يبعث لها عبر حروفه الرقيقة أحاسيس تخرّ لها العذارى وَلَهًا، فتارة يتحدث بلسان العاشق الذي ظفر بمحبوبته واستكان لها، فتحلق مع كلماته في سماء صافية قد لفتها طيور الفرح.

وطورًا تبكي وأنت تتأملُ تصويره للحظات الفراق والوداع؛ فتحتويك تلك الكلمات الرقيقة والنغمات الآسرة والمشاعر الطافحة بالحنين والأشواق لمحبوبة لا سبيل لمعانقة ديارها (امتطيتُ منذ يومين فرس الهجر والجفاء أقطع به فيافي الوجد المُضني وقِفار الشوق الآثم، وبيداء الأمل المستحيل، لا ألوي على شيء ولا يلوي عليّ شيء، متجاهلًا تلك الأيام الذاهبة الضائعة في الأبعاد لا أرغب في الازدياد منها...).

وقد كان للحب نصيب وافر في ومضات الكتاب خاصة في صفحاته الأخيرة، إذ الحب عند "ربيع السملالي" متنفّس للحياة، ومجال خصب للخيال الجميل الذي يجعلك تعتقد أن الكاتب متيم حدَّ الثمالة، وما هو إلا عاشق لهذا الإحساس الجميل، وإن شئتَ اليقين فتأمل قوله: (عندما أكتب عن الحب لا يعني أنني غارق في بحوره إلى أذني، فالحب يكون جميلًا، رائعًا كما أتصوره (أنا) وأتخيله وأرسمه بريشة ذائقتي الشعرية).

ولأن الخواطر كانت متنوعة؛ فقد كان للجانب الاجتماعي حضور كذلك من خلال انتقاده لبعض الظواهر الاجتماعية كالنظرة التعسفية للمرأة المطلقة، والنفاق في العلاقات الاجتماعية، والتفاوت الطبقي الذي يجعل الأغنياء يتقلبون في نعيم الدنيا غافلين عن إخوانهم الفقراء (إن في مدينتي أدعياء التدين الأغنياء يذهبون إلى الحج والعمرة كل عام، وإخوانهم الفقراء يكابدون الضياع لا يلقون لهم بالًا).

وتأبى دراسته الدينية الأولى إلا أن تفرض ذاتها في الكتاب؛ حيث يبدو جليًّا تأثر مصطلحاته وتعابيره التصويرية بلغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما تطالعنا بين الحين والآخر نفحات إيمانية من خلال ردّه على الملحدين، وكشف انحرافات المتدينين وغلاة التكفير، واستنكار سقطات دعاة السلاطين والدعوة للإخلاص في كل أمور الحياة، والتأمل في ملكوت الله بقلب المؤمن وقلم الأديب.

تِلْكُم قراءة بسيطة لهذا الكتاب الماتع، الصغير حجمًا، الكبير قدرًا، وتسليط لبعض الضوء على كاتبه القدير الأديب المغربي "ربيع بن المدني السملالي"، الذي أتمنى أن يحقق له المولى أمنيته التي بثها في ثنايا الكتاب: (أمنيتي أن أكون مجلدًا ضخمًا مليئًا بالفوائد والعبر، يجوس خلال الديار عبر السنين والأعوام المتطاولة، يزرع المحبة في القلوب العطشى، ويغرس أزهار السلام وورود الاطمئنان في أفئدة الحيارى).

ولئن لاحظ القارئ إعجابي بالكتاب وأسلوب صاحبه، فإني على يقين أن له مئات المعجبين الذين تأثروا بكتاباته، وأقبلوا على القراءة بنفس نَهِمة اقتفاءً لأثره، وأسوق في هذا المقام شهادة للكاتب "أنس سعيد محمد" الذي يقول: (أخونا الفاضل "ربيع السملالي"، مدمن الكتب، والمدافع عن لغة القرآن، أعتبره من الشباب المغاربة الذين يساهمون في تجديد الصلة بهذه اللغة العظيمة التي تُهمل وتُحارب، وله في صفحاته (الفيسبوكية) ما يثلج الصدر وتقر به العين من النقولات الرائعة والكتابات القيمة.

يتميز "ربيع" بمكتبته العامرة وباعتنائه الشديد باقتناء الكتب وقراءتها بمختلف أنواعها، ثم إنه غواص فيها يستخرج من بطونها عبارات ونقولًا ينشرها لنا ويفيدنا بها، وهذا من أفضل ما يفيد به الإنسان غيره عبر صفحاته الفيسبوكية، ولذلك صارت تلك الصفحات الربيعية واحات أدبية غنّاء لكل محب للعلم والأدب.

وهو كاتب متميز له أسلوب متين يعيد إلينا ذلك الطعم المفقود للعربية الأصيلة، والتي صرنا نادرًا ما نراها في كتابات شباب هذه الأيام الذين غلب عليهم التأثر بالطابع الحداثي الرديء".

ويقول أحد معجبيه وهو الشاعر المغربي سعيد عطاط:

(بعدما كدت أصل درجة اليأس من الكتابات الأدبية المعاصرة بوطننا الحبيب، لما اعترى معظمها من هزالة المبنى، وضحالة المعنى، استطاع الأديب الفاضل: ربيع السملالي بسر بنانه، وسحر بيانه أن يرسم فيها أملًا لامعًا في الأفق، رجل عاد بنا إلى النجر الجميل في أرقى صوره، يقيم الوجد بين أنامله مآتم وأعراسًا، والوعظ في درره شهقات وأنفاسًا، والوصف في رسمه حياة تنبعث إحساسًا..).

ومسك الختام شهادة أخرى للكاتب "رياض دحايرة" في حق هذا الأديب الأريب (إن ربيعًا لأديب لبيب، فصيح العبارة، بليغ الإشارة، متين السبك، غيور على العربية غيرة محمودة تتجلّى في نصاعة حرفه، وتوخّيه الفصاحة وسلامة اللفظ والمعنى، وكأننا نقرأ أدبنا القديم الرائع لابسًا ثوب هذا الزمان؛ فتأتينا نصوص "ربيع" على جزالتها وفصاحتها وقوتها سلسة مليحة ناضجة تامة النضج؛ وهي في ذلك تصلح للنشر المتخصص في مصاف الأدب الجميل، بل تصلح في كثيرٍ منها لأن تُتخذ نماذج تُحتذى وتُدرس!).



قِراءةٌ في كتاب "جَدّدْ حياتك"

مُتعة الفكر أن تتفيأ ظلال كتاب له من الرقي الفكري والسلاسة اللغوية والبراعة التحليلية مع سلامة العقيدة ما يأسرك ويأخذ بتلابيب قلبك، وليس من السهل الظفر بمثل هذه المغانم مجتمعة في مؤلَّف واحد، لكن هذا ميسّر مع تحفة الشيخ محمد الغزالي وكتابه "جدّد حياتك"، تخالُ نفسك وأنت بين يديه كأنك في عيادة طبيب نفسي عالم بطبيعة النفس البشرية، ومتمرس بتقلباتها الإنسانية. بسلاسة يعيد بلورة أفكارك المبعثرة، ويجدد فيكَ متعة الحياة التي توارت خلف المحن ومزقتها سموم الهموم.

وحيث إن "الحكمة ضالة المؤمن" فالشيخ الغزالي وجد ضالّته عند المؤلف الأمريكي ديل كارنيجي ومؤلَّفه القيم "دعِ القلق وابدأ الحياة"، فاهتدى إلى تأصيل الكتاب تأصيلًا إسلاميًّا لما تضمنه من قيم جليلة هي أساس ديننا الحنيف، يقول رحمه الله: "لقد قرأتُ كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) للعلامة (ديل كارنيجي) الذي عرّبه الأستاذ عبد المنعم الزيادي، فعزمتُ فور انتهائي منه أن أردّ الكتاب إلى أصوله الإسلامية! لا لأن الكاتب

الذكيّ نقل شيئًا عن ديننا، بل لأن الخلاصات التي أثبتها بعد استقراء جيّد لأقوال الفلاسفة والمربّين وأحوال الخاصة والعامة تتفق من وجوه لا حصر لها مع الآيات الثابتة في قرآننا والأحاديث المأثورة عن نبينا."

وهذا الثناء العظيم على كتاب "كارنيجي" جادَ به ثلة من الدارسين والعلماء، فقد ذُكر عن الشيخين الجليلين عبد الله البسام ومحمد بن صالح العثيمين- رحمهما الله- : أن الشيخ عبد الرحمن السّعدي لما كان في بيروت إبّان فترة علاجه اطّلع على كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) فأُعجب به، وقال :" هذا كتاب رائع، وفيه فوائد جمّة، ولكن الذي كتبه ليس مسْلمًا، فَفَاتته أصول عظيمة من السعادة كقراءة القرآن والأذكار واحتساب الأجر ونحو ذلك مما جاءت به الشريعة."

"جدد حياتك" عنوان يُغري بالقراءة، ويَعِدُ بالفائدة الجمّة لكل ناشدٍ للتغيير تائقٍ للانعتاق من طوق الأزمات النفسية الخانقة. والتجديد الذي يُرغّب فيه الشيخ هو التجديد الذي ينطلق من الذات بدعم إيماني يرتكز على ارتباط العبد بربّه صباحَ مساء، وثقةٍ تامة بالقدرات الشخصية، تجديدٌ يبدأ بنقض كل ما هو سلبي ونكث الأركان المتهالكة؛ فيقول "إن تجديد الحياة لا يعني إدخال بعض الأعمال الصالحة أو النيات الحسنة وسط جملة ضخمة من العادات الذميمة والأخلاق السيئة، فهذا الخُلْط لا ينشئ به المرء مستقبلًا حميدًا ولا مسلكًا مجيدًا"؛ كتجديد العاصي لحياته بتوبة

صادقة يلقى فيها ربه، توبة لا تكون "زوْرة خاطفة" يعود بعدها المرء لما ألِفه من المعاصي، بل توبة تتغير معها معالم النفس كما تتغير الأرض الموات، فتكون هذه التوبة "نُقْلة كاملة من حياة إلى حياة، وفاصلًا قائمًا بين عهدين متمايزين كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء".

وما يجعلك أخي القارئ تقتحم ساحة الكتاب غير هيّابٍ ما امتاز به من تصنيف بديع وتبويب لكل مبحث بعنوان يشدك إليه شدًّا رهيبًا، فتُقبل عليه بنفس توّاقة لاسْتِكناه ماهِيته. ومن خلال استقراء العناوين التي صدّر بها الشيخ مباحث الكتاب نستطيع الجزْم بأنه وُفِّق بشكلٍ يبعث على الفخر في رسم خطة راقية لكل من يرنو لتجديد حياته والنجاة من براثن الأزمات، وسدّد سهام الإصلاح بشكل صائب ضد كل آفة نفسية، وذلك ببسط جُملة من التوجيهات المستندة لمصادر التشريع الإسلامي من قرآن وسنة وعمل الصحابة، مدعمًا ذلك بتجارب حيّة من الحياة مستقاة من كتاب كارنيجي. ويمكن تصنيف هذه التوجيهات إلى نصائح توطد علاقة العبد بربه، وأخرى تدعم ثقة المرء بنفسه، وثالثة تصحح نظرته لمن حوله، وأخيرة ترشده إلى سبل مجابهة المحن واغتنام الوقت.

﴾ مع الله

إن اليقين بوجود الله والإذعان لتصاريف قدره ضرورة إنسانية وموجب أساس للثبات في هذه الحياة، فهو سبحانه من يستطيع سدّ خلّة ابن آدم وإشباع

نهمه وَردّ الطمأنينة إلى قلبه، وهذا ما أكده "الغزالي" بقوله: "ولو أقبل المرء على ربّه يستلهمه ويستعينه وحده لوفقه إلى ما يريح أعصابه ويزيح آلامه" وساق في هذا المقام قول وليم جيمس: "إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه عز وجل تحققت أمنياتنا وآمالنا كلها". وألمحَ- جزاه الله خيرًا- إلى أن الصلاة تحقق للعبد هذا المطمح النبيل فقال: "إن الركض في ميادين الحياة بقدر ما يجلّل البدن بالغبار والعرق يجلل الروح بالغيوم والأكدار. والمرء- إثر كل شوط طويل- يحتاج إلى ساعة يلم فيها شعثه، ويعيد النظافة والنظام إلى ما تعكّر وانتكث من شأنه كله. وليست الصلاة إلا لحظات لاسترجاع هذا الكمال المفقود أو المنشود"؛ ولأن سير الحياة إنما هو بقضاء الله وقدره وجب الفقه الجيد لهذا الركن فهو لا يعني الخضوع والخنوع وترك العمل، بل هو الرضا التام باختيار الله لنا بعد أن نستنفذ ما في جعبتنا من سعي وعمل. مما يستلزم مرونة في مواجهة الشدائد والمحن وعدم تغليب كفّة اليأس، بل التعامل بروح متفائلة مع الأمور التي تعرض لنا في الحياة، وهذا ما يبعث في النفس سكينة و طمأنينة؛ لأنّ "إحساس المؤمن بأنّ زمام العالم لن يفْلت من يد الله، يقذف بمقادير كبيرة من الطمأنينة في فؤاده. إذ مهما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال فلن تبُتَّ فيها إلا المشيئة العليا". فجدد حياتك بدءًا بتجديد صلتك بربك، واعقد العزم على الأوبة الصحيحة للفطرة التي سواك بارئكُ عليها.

ﷺ مع النفس

في مباحث كثيرة أبحر الشيخ مع هذه النفس الإنسانية التي تعج بالغرائب والعجائب الربانية، فدعا كل ابن آدم إلى التأمل في نعم الله التي غفل عن إدراك فضلها وتقدير قيمتها من شدة استئناسه بها حتى عدّها حقًّا مفروضًا: من سلامة الأعضاء والحواس، والتنعم بخيرات الأرض الظاهرة والباطنة.. فقيمتها غالية جدًّا لا توازيها كنوز الدنيا لكن "ما أقل تفكيرنا فيما لدينا، وما أكثر تفكيرنا فيما ينقصنا" كما قال شوبنهور. فلو أن كل واحد منا تأمل نِعم الله عليه وأحسن توظيفها دون جحود أو نكرانٍ لاستشعر فضل الله العظيم عليه، ولما شعر بضيق ونكد. ولهذا أشار "الغزالي" إلى أن أساس المنغّصات في الحياة ليست الحياة ذاتها، وإنما سلوك الإنسان فيها بغير هدى جعلها جحيمًا تنأى بأهلها.

وكما يحرص المرء على تجميل ظاهره عليه أن يعتني بباطنه ويحرص على نقاء سره و علانيته، "فما قيمة المظهر الحلو إذا كمُن وراءه مخبر مرٌّ". وقد بيَّن الشيخ خطورة الترقيع الذي يعمد له بعض الناس في إصلاح ذواتهم، وأن التغيير ينبغي أن ينبع بدءًا من داخل الإنسان، فيجتث كل بذور الهوى الذي يميل به عن الحق؛ لأن الهوى كما قال الشيخ نقلًا عن ابن الجوزي "رِقٌّ في القلب، و غُلٌّ في العنق، وقيدٌ في الرجل، ومُتَابعه أسيرٌ" و "كم شهوة كسرت جاهًا، ونكست رأسًا، وقبّحت ذكرًا، وأورثت

ذمًّا، وألزمت عارًا لا يغسله الماء". وقد بسط الشيخ في هذا الكتاب سبُل قهر الهوى نقلًا عن الإمام ابن الجوزي، وتقفِّي أثرها سبيلٌ "لتخليص أسير الهوى من براثن الشيطان عندما يغريه بمواقعة المعصية"؛ لذا وجب محاسبة النفس للوقوف على مواطن الخلل بها، وقد حبّذ الشيخ ضبط هذه المحاسبة في سجل أمين؛ فقال:"لا بد من حساب دقيق يعتمد على الكتابة والمقارنة والإحصاء واليقظة".

وفي مبحث جليل عنونه بـ "حياتك من صنع أفكارك" أكد "الغزالي" أن ما يعتري الإنسان ظاهرًا من فتور أو فتوة أو سرور أو حزن ما هو إلا انعكاس طبيعي لما يجول في خاطره وما يضطرب في فكره، وكثير من المشاكل مبدؤها الفكر الخاطئ الذي يجعل الإنسان يحيا في دوامة ما لها من قرار "النفس وحدها هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ويصبغها من عواطف"؛ لذا فأي رغبة في التغيير ينبغي أن تنبعث من الذات فتتجدد مشاعرنا وأفكارنا وتنطلق نحو أفق جديد يتعالى على كل الأفكار السلبية التي تستوطننا.

و- على عادته في كل مبحث- ذكر "الغزالي" هنا حكاية معبرة ساقَها كارنيجي في كتابه، وهي "لِشابّ أنهكته العِلة، فرحل عن وطنه يطلب الصحة في السياحة، وكان أبوه يعلم طبيعة مرضه وأن سقامه جاء من توعك مزاجه وغلبة أوهامه فكتب إليه: ولدي، إنك الآن على بعد ألف وخمسمئة ميل من بيتك، ومع ذلك لست تحس فارقًا بين الحالين هنا وهناك، أليس كذلك؟!

بلى؛ لأنك أخذت عبر هذه المسافة الشاسعة الشيء الوحيد الذي هو مصدر كل ما تعانيه؛ ذلك هو نفسك. لاآفة البتة بجسمك أو عقلك ولا شيء من التجارب التي واجهتها قد تردي بك إلى هذه الهاوية السحيقة من الشقاء، وإنما الذي تردى بك هو العوج الذهني الذي واجهت به تجاربك، وكما يفكر المرء يكون.. فمتى ما أدركت ذلك؛ فعد إلى بيتك وأهلك لأنك يومئذ تكون قد شفيت".

وقد كرر الشيخ مرارًا أن التجديد كي يكون سليمًا؛ على المرء أن يثق بنفسه وقدراته، ويشعر أنه شخص متفرد لم تنجب الحياة مثله. ولا يصادر ميوله وأفكاره ومشاعره أو يبغي عنها حِولًا. ويَنأى عن التقليد الذي يفقده شخصيته، ويسرع بعملية ذوبانها في الآخر، وقد استقبح الشيخ هذا الذوبان خاصة في الميدان الديني فقال:"والمحاكاة وذوبان الشخصية وتمثيل الأكابر علل لا تذم في مجال قَدْر ما تذم في المجال الديني؛ حيث لا يبلغ أحد درجة التقوى إلا إذا استقامت خلائقه وطابت سجاياه وكل تظاهر– مع فقدان الأساس– لا يزيد المرء إلا مَسْخًا".

ﮩ مع الأزمات والاضطرابات النفسية

كثيرًا ما تتعثر الخطى لحظة الأزمات، وتختنق الأنفاس عند هبوب رياح الشدائد والمحن، فنعيش الهدر بكل معانيه؛ لذا أكد الشيخ أن الهموم هي سموم تخترق الجسوم؛ فتنخر فيها كل عظم وتفتّ كل عضد، بل إن القلق

والهم "يحطمان العمالقة ويذبلان الوجوه الطافحة بالحياة " و" الاستسلام لتيار الكآبة بداية انهيار شامل في الإرادة يطبع الأعمال كلّها بالعجز والشلل". وقد أثبتت الدراسات الحديثة خطورة القلق على صحة الإنسان.

لذا وجب علينا الثبات لحظة المحن ومجابهتها بأناة وحِلم حتى نخرج منها "خروجًا لا يخدش المروءة ولا الشرف". بل نسعى جاهدين أن نستخلص من هذه المحن "عناصر حياة تكفي، أو معاني عزاء تشفي". وحين يكون الإيمان بالقدر عكازة المؤمن فإن التسليم والرضا يكون ديدنه، فيتوجه إلى الله بالدعاء لفك الكرب، إذْ هذه الأدعية "أشبه بالأناشيد الحماسية التي تثير عواطف الركب السائر" وليست كما يدعي الجهلة موقفًا سلبيًّا من الحياة ونوائبها.

ولأن الأزمات تجعل المرء يتيه في دوامة القلق والاضطرابات؛ فقد أشار- رحمه الله- في مبحث خاص إلى سبل التخلص من القلق، وذلك بتقييد الرهبة وإطلاق العقل للابتعاد عن الظنون والأوهام واستجلاء الحقيقة بكل تجرد؛ بعيدًا عن التأثيرات العاطفية التي تطمسها، وتحليلها بنفسٍ راضية ملؤها السكينة والتسليم وإن خالفت هوانا، ثم اتخاذ القرار والعمل بمقتضاه غير هيّابٍ ولا وجِلٍ. يقول رحمه الله "فلندرس مواقفنا في الحياة بذكاء ولنرسم منهاجنا للمستقبل على بصيرة، ثم لنرم بصدورنا الى الأمام لا تثنينا عقبة ولا يلوينا توجس. ولنثق بأن الله يحب منا هذا المَضَاء؛ لأنه يكره الجبناء ويكفل المتوكلين".

وحتى تؤسس لمستقبل مشرق "لا تبكِ على فائت"، خذ العبرة من أخطاء الماضي، ولا تُطل المكوث أمام أحداث أوجعت قلبك ويتمت أحلامك، فهذا أمر ينبذه الإسلام ويذمه، وقد أعطى الشيخ مثالًا على ذلك ما جاء في غزوة أحد من عِبر حكاها القرآن الكريم وكيف أدّب المسلمين بأنْ "علق عيونهم على المستقبل، وصرف أذهانهم عن الماضي، وزجرهم عن الوقوف بأطلال الأمس يبكون ويولولون".

فمن الفطنة والكياسة أن تُحيل التراب تِبْرًا، وتمتطي صهوة الأمل وتدوس على الألم، ولا يبلغ هذا المرام إلا صاحب فكرٍ نيّر ونفسٍ وثّابة تأبى أن تسلسلها نائبات الدهر. فلا تخضع وتخنع للأزمات وتنبطح أمامها منكسرًا ذليلًا، تحصي الثواني ذوات العدد مترقبًا وصول القطار إلى آخر المحطات. بل عليك أن "تصنع من الليمونة المالِحة شرابًا حلوًا" ومن غمامة الهموم مُزْنًا ترتوي منه نفسك العطشى، وتنهض به همتك المتآكلة.

۞ التعامل مع الآخر

"الجحيم هم الآخرون" هكذا اختزل "سارتر" علاقاتنا الخارجية وعدَّها سببًا للجحيم الذي قد نحياه. ولهذا ركز الشيخ الغزالي في كتابه على طريقة التعامل مع "الآخر" بشكل إيجابي لا يسمح له بتدميرنا أو بعثرة أوراق حياتنا؛ فحذر من الغضب لأنه "مسٌّ يسري في النفس كما تسري الكهرباء في البدن" فيكون مدمرًا لصاحبه حال اشتداده ومانعًا للعطاء

وموجبًا للاضطراب بسبب التفكير في الانتقام والقصاص؛ لذا دعا إلى التحلي بقيم التسامح مع الأصدقاء والأعداء، والنظر في عواقب الأمور، وعدم الانشغال بالانتقام والحقد والضغائن، وله في الله خير عوض كما قال رسول الله ﷺ: "ثلاث من كنّ فيه آواه الله في كنفِه وستر عليه برحمته، وأدخله في محبته: من إذا أُعطي شكر، و إذا قدِر غفر، وإذا غضِب فتر" رواه الحاكم.

ولأن الجحود طبع إنساني فلا تنتظر شكرًا على معروف أسديته. وافعل الخير عِشقًا لصنائع المعروف ولا تبتغي به غير وجه الله تعالى. واجعل عملك خالصًا له سبحانه لا ترجو به ثناء أو إعجابًا أو بروزًا أو ظهورًا أو شكورًا. ففي طباع نفرٍ من الناس" كنود يعزّ على الدواء"؛ لذا فلا تستغرب إساءتهم لك متى أحسنت إليهم، ولا جهلهم لفضلك متى جارت بك الأيام.

وقد حكى الشيخ بمرارة عن تجربته مع الجحود؛ فقال" وإنني لأتلفت يمنة ويسرة وأتفرس في الجزاء الذي لقيته من الناس فأحس غصّة"، وقد بيّن– رحمه الله– سبب هذه الغصّة وما تعرض له من محن وصلت حدّ التطاول على كتاباته وسرقتها؛ فقال" ليكرهني من شاء أما أن تختطف كتاباتي ويوضع عليها اسم غير اسمي ثم يتواصى الحاقدون بالإرجاف علي وإظهاري للملإ كأني أنا الناقل عن غيري فهذه هي الجريمة التي تطلق

عقيرتي بالصياح ولا أقبل فيها هدنة"، لكن في الأخير قرر التغاضي عن الإساءة وفوّض أمره لله قائلا" قررت أن أطوي هذه الصفحة سائلًا ربي أن يغفر لي ولمن جار علي واستهان بي".

وفي موضع آخر شدّد- رحمه الله- على ضرورة تقبل النقد البنّاء بصدرٍ رحبٍ، والسعي من خلاله لتقويم اعوجاج النفس، وعدم المبالاة بالنقد الهدام الذي تُسيره ألسُن حاقدة؛ فقال:" إن أصحاب الحساسية الشديدة بما يقول الناس، الذين يطيرون فرحًا بمدحهم، ويختفون جزعًا من قدحهم، هم بحاجة إلى أن يتحرروا من هذا الوهم، وأن يسكبوا في أعصابهم مقادير ضخمة من البرود وعدم المبالاة، وألا يغترّوا بكلمة ثناء أو هجاء، لو عُرفت دوافعها ووُزنت حقيقتها ما ساوت شيئًا. وهبْها تساوي شيئًا ما؛ فلماذا يرتفع امرؤ أو ينخفض تبعًا لهذه التعليقات العابرة من أفواه المتسلّين بشؤون الآخرين؟!".

ولأن بعض النقد منشؤه الحسد؛ فقد تحدث الغزالي عن هذه الآفة التي كثيرًا ما تقف حجر عثرة في وجوه الموهوبين فما" إن تكتمل خصائص العظمة في نفس، أو تتكاثر مواهب الله لدى إنسان حتى ترَى كل محدودٍ أو منقوص يضيق بما رأى، ويطوي جوانحه على غضب مكتوم، ويعيش منغصًا لا يريحه إلا زوال النعمة، وانطفاء العظمة وتحقق الإخفاق". وللأسف كثيرًا ما أسقط الحسد ألوية المرموقين والمتميزين بسبب الدسائس التي تُحاك ضدهم، وبسبب المثبطات اللفظية التي تشاع عنهم

لتنكيس أعلامهم. لكن المؤمن عليه أن يستعين في ذلك بربّه، ويمضي قُدمًا غير آبهٍ بهذه القلوب المريضة، وله في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فغير خافٍ ما تعرض له من مكائد ودسائس، لكنه مضى غير مهتم بالمشركين واليهود حتى بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولتعزيز أواصر الأخوة والصداقة مع الآخر لابد من تغليب الإيثار على الأثرة؛ لأن الأنانية وبالٌ على الفرد والمجتمع، بل إن" الاضطراب الاجتماعي الذي نعانيه إنما ينبع من هذه العين الحمئة فإن فقدان التعاون وقلة الاكتراث بشؤون الجماعة وتأخير الاهتمام بالبلد الذي نحيا فيه والأمة التي نرتبط بها والرسالة التي ننتسب إليها؛ كل ذلك أمارة على ضعف اليقين ونجوم النفاق". فالمسلم خلقه الله ليكون ذا نفع على نفسه وعلى من حوله، فهو مصدر نور ينبغي أن يستضاء به؛ ولهذا حثّ ديننا الحنيف على التعاون وبذل الخير للآخر واعتبره من أهم القربات والصدقات. ولْيكنْ ديدن الصحبة فينا ما حكاه صاحب "قوت القلوب":" ليكن صاحبك من إذا خدمته صانك، وإن قعدت بك مؤونةٌ مانك، وإن مددتَ يدَك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى منك سيئة سدَّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلة وَاسَاك، وإن قلتَ صدّق قولك، وإن تنازعتما آثرك. إنّ صديقك هو من يسدُّ خلَلَك، ويستر زَلَلك، ويقبل عِلَلَك".

مع الوقت

كثيرًا ما نبخس الوقت حقه، فنعيش الهدر الزمني بكل معانيه، وقد تحدث "الغزالي" عن سلبيات الفراغ وآفاته، وساق شواهد من الكتاب والسنة في مدح العمل، وخلص إلى القول بأن سوء تدبيرنا للوقت وهدرنا لطاقتنا العقلية والجسدية والعاطفية هو أحد أهم أسباب تخلفنا؛ فقال:" إن الفراغ في الشرق يدمر ألوف الكفايات والمواهب، ويخفيها وراء رُكام هائل من الاستهانة والاستكانة، كما تختفي معادن الذهب والحديد في المناجم المجهولة"؛ ولهذا حث على اغتنام الوقت وأن يعيش المرء في حدود يومه ويستمتع بلحظاته التي لا تتكرر، فاللبيب من عاش وتعايش مع يومه ورضي بقضاء ربه، ولم يقع أسيرًا لماضٍ فائت أو مستقبل آتٍ، يقول رحمه الله:" من أخطاء الإنسان أن ينوء في حاضره بأعباء مستقبله. والمرء حين يؤمل ينطلق تفكيره في خط لا نهاية له، وما أسرع الوساوس والأوهام إلى اعتراض هذا التفكير المرسل ثم إلى تحويله همومًا جاثمة وهواجس مقبضة". لكن هذا لا يعني عدم التخطيط للمستقبل، أو ادخار ما يعين على نوائب الدهر؛ لأن التبذير في الوقت والمال نوعان من السفه.

هكذا إذًا ارتضى الإمام الغزالي أن يكون تجديد المرء لحياته؛ ثورة وجدانية وعقلية تقطع دابر كل الإخفاقات، وتعتلي صهوة الأمل والعمل من أجل غدٍ أفضل يجُبّ كل الإخفاقات، ثورة لم يغفل فيها الجانب

الإيماني باعتباره أساس كل إصلاح سليم ونافع، إذ ما نفعُ الحياة إن لم ترتبط بِوَاهِبِ أنفاسها!!

أو الجانب النفسي لأنّ التغيير ينبغي أن ينطلق من الذات، وكذا الجانب الاجتماعي لأن الإنسان كائن اجتماعي ولا يمكنه الانزواء في عالمه الخاص بعيدًا عن الاختلاط.

وحُقَّ للشيخ أن يفتخر بما سطره في كتابه وكتاباته الأخرى؛ حين قال" لم تكن خطاباتي بسطة لسان يهدر بالقول، ولم تكن كتاباتي سطوة قلم يصول ويجول؛ بل كان ذلك كله ذَوْبَ عاطفة تضطرم بالإخلاص، وفكرًا يستكشف صميم الحق ويبادر إلى إعلانه. وقد انفردت بأسلوب في شرح تعاليم الإسلام ومهاجمة الفساد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لم يشركني فيه أحد أمدًا طويلا".



ربيعُ الكُتب

حيثما ولّيت بوجهك في ربوع وطننا العربي، طالعتك الجهالة نافثة سمومها بكل ركن من أركان حياتنا، خلل عظيم يقضّ فكر كل مسلم غيور على أمته، وهو يرقُب ركب الأمم الأخرى يسير قُدُمًا، وركب أمته يأبى إلا أن يرجع القهقرى. غيوم الجهل طال مُكثها في ديارنا، وأنِست بصحبتنا أعوامًا مديدة، ضِقنا ذرعًا بهذا الجاثوم الذي كدّر عيشنا وسفّه أحلامنا وجعلنا بمنأى عن تعاليم ديننا وشرع ربّنا. الإحصائيات السنوية عن مستوى القراءة تُشعرنا بالخجل وتدمي قلوبنا، ورغم ذلك نُصرّ على مناصبة العداء للقراءة والكتب. ونأبى إلا أن نجعلهما في ذيل اهتماماتنا، مع أن نهضة أيّ أمة رهينة بمدى اهتمامها بالعلم وأهله.

ولئن كانت الجهود الرسمية ضعيفة ولا ترقى لمستوى التطلعات التي تنشدها قلوبنا المتعطشة للعلم والمعرفة؛ فإن المبادرات الفردية التي يحمل مشعلها كل غيور على دينه وأمته؛ لم تنقطع على مرّ التاريخ الإسلامي، بل كانت ومضات نور استضاءت بها الأجيال المفتقرة للمرشد والموجه المعرفي. ورغبةً في غرس بذور الأمل في جيل اليوم، وتبديد تلك الصورة القاتمة عن شبابه؛ أحببت تسليط الضوء في هذا المقال على وجه

أدبي شابّ أَبَى إلا أن ينخرط في سلك المحرّضين على القراءة بمبادرة فردية جاعلًا الكلمة المسدّدة سلاحه وشبكات التواصل نافذته المطلة على العالم. إنه الأديب المغربي ربيع السملالي.

من يطالع كتابات ربيع السملالي على صفحات التواصل ومقالاته وكذا إصداره الأول "أفكار على ضفاف الانكسار" يتضح له ذاك العشق الجنوني بينه وبين الكتاب، عشق فريد بالنسبة لشابّ في ريعان شبابه أَلِف أقرانه مغازلة الكرة، أو الرقص على نغمات مغنيهم المفضل، وفضّل هو مغازلة القلم والرقص على نغمات الحروف المبعثرة بين دفتي الكتب. يقول في مقالته "إعارة الكتب من منظور عاشق": (الكتابُ، وما أدراك ما الكتاب؟! إنه العِشقُ الدَّفين الراسخ في أعماق مَن اختاروه صديقًا وفيًّا وحبيبًا دائمًا، واتخذوه وليًّا ونصيرًا! إنه شيء كالهواء في قلوبهم، وكالماء العذب الزُّلال في أعماقهم العطشى، بل هو الحياة التي لا حياة بعدها! يَقرؤونه ويقلِّبون صفحاتِه بمتعةِ من يبحث عن كنز نفيس لا مجال للشك في وجوده، يتلذَّذون بمسامرته كما يتلذَّذ العاشقُ الولهانُ بقرب حبيبته التي طال انتظاره لها؛ بشوق محرِق، وحنين مُرهِق.)

هذه العلاقة الحميمية لم تكن وليدة لحظتها، بل نشأت منذ صغره وجرَت منه مجرى الدم حتى خالطت كل ذرّة من كيانه، رغم أن البيئة التي ترعرع فيها لم تكن- كغيرها من بيئاتنا- محفّزة على الانغماس في بحر

العلم، لكنه أصرّ على خوض غمار هذه الأمواج ومزاحمة أهل العلم منذ صغره "من أكبر نِعَم الله عليَّ أنّني انبثقتُ من بِيئة لا علاقة لها بالعلم، ومن مجتمع لا حظّ له في حقول المعرفة.. فحُبّب إليّ العلم والعلماء والأدبُ والأدباء حبًّا ملكَ عليّ شِغاف قلبي الصّغير حينذاك" ويقول في موضع آخر: "حينَ أحسَسْتُ بموهبة الكتابة تضطربُ في أعماقي ودودتُها تنغُلُ في دَمي وأنا دون العشرين من عمري، جعلتُ أقرأ كلَّ كتابٍ يقعُ تحتَ يدي يومئذ بحثًا عن طريقة تخلّصُني من العِيّ والحصر وركاكة الأسلوب وفقر المعلومات اللّغوية بنحوها وصرفها وإملائها".

لذا لا تعجب إن قرأتَ أن حلمه لم يكن يومًا امتلاك القصور الجميلة والسيارات الفارهة، بل الظفر بمكتبة عامرة تصْطفّ في رفوفها مصنفات الفقهاء والأدباء واللغويين والنحويين وهلمّ جرّا، يقول ربيع الكتب: "كنت قديمًا وأنا دون العشرين من عمري أحلمُ بمكتبة ضخمة، تضمّ بينَ جنباتها كلّ ما لذّ وطاب من أصناف الآداب وألوان العلم والفنون، وكنتُ أستبعد أن يتحقّق هذا الحلم لقلّة ذاتِ اليد، وعدم القدرة على اقتناء ما تصبو إليه الذّائقة ونفسي الأمّارة بالحبّ والحنين لتلك الكتب". لكنه تحلّى بالصبر وتجمّل بالتأني وتنازل عن الكثير من مُتع الحياة رغبة في تحقيق هذا الحلم حتى ظفر به، ليبعث رسالة لكل من يهدر أمواله في الملاهي والكماليات ويقْلب ظهر المِجَنّ لمثل هذه الضروريات: " فمرّت الأيّام، وتعاقبت الليالي، فتحقّق

الحلم، وأنفقتُ من أجل تكوينها كلّ ما أملك، وتنازلتُ في سبيلها عن كثير من الكماليات الدّنيوية التي يسبّح بحمدها كثير من النّاس بكرة وأصيلا". بل تجاوز الحلم المدى وصارت الغرفة تضيق بما فيها من كتب: "أنا الآن أحتاج لرفوف تليق بهذه الكتب المتراكمة هنا وهناك، كما أحتاج لمساحة شاسعة يتّسع حائطُها لها، أستطيع من خلالها أن أرتّبها ترتيبًا أبجديًّا لا يُتعبني وأنا أخوض غِمار البحث والتّفتيش... أمّا الكتب فأستطيع أن أقول قد اكتفيتُ وتحقّق ما أردتُ، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات(!).

ومن منطلق إفادته من المكتبة المنزلية صار حريصًا على الدعوة لإنشائها بكل بيت؛ فيقول: " تكوينُ مكتبةٍ ولو صغيرةً في غرفة نومك من أكبر المُحفّزاتِ على القراءة والمطالعة، وإنّ قراءة عشر صفحات فقط في اليوم تعدلُ قرابة عشرة كتب في السّنة!". ولعلنا نشاطره الرأي؛ لأن وجود مكتبة بالمنزل يشكل حافزًا مهمًّا لأهله للمواظبة على القراءة، كما أنه يسمح للطفل بالاستئناس بالكتب والمطالعة، مما يساعده على تنمية مداركه ومهاراته اللغوية وتنشيط ذاكرته، وكلما كانت المكتبة متنوعة تستجيب لميولات أهل البيت؛ كلما كانت فائدتها أعظم.

فالكتاب– إذًا– بالنسبة للأستاذ ربيع السملالي يأتي في مقدمة اللذات التي تُبهج فؤاده، وهو من أجمل الهدايا التي يمكن أن تصادف هوى في فؤاده، وما من شيء يدخل السرور على قلبه ويجعله يرقص طربًا كالطفل؛

مثل ظفره به وخلوته به في هدْأة الليل وسكون الضجيج، بل إنه يفقد إحساسه بالزمان والمكان ويغدو كالعاشق الولهان الذي خلا بمعشوقته بعيدًا عن أعين المتطفلين.

لذا لا تعجب إن ألْفيته كثير الترّدد على المكتبات التي لا يحجبه عنها إلا مُزاحمة مسؤولياته الأسرية لهذا الولَه العجيب، فيضطر مُرغمًا لتأجيل زيارتها إلى حين ميسرة: "البارحة زرتُ مكتبة أنيقة جديدة بمدينتي، فرأيت كتابين لا يوجدان في خزانتي.. ذهبتُ بفكري إلى المطبخ فذكرتُ الدّقيق، والزّيت، والشّاي والسّكر والحليب، وما إلى ذلك من لوازم العيش.. وأنا أبٌ لثلاثة أطفال، فقلتُ بيني وبين نفسي "لا أستطيع اقتناءهما، ثمّ قبّلتهما قبلات يسيرة وعيني تكاد تفيض من الدّمع حزنًا وأسفًا عليهما".

ولأجل نفاستها وقدسيتها في نفسه؛ يرى ربيع السملالي أن إعارة العلماء والكتّاب كتبَهم لمن لا يستحق ضربٌ من ضروب السّفه، بل "وصمة عارٍ على جبين مكتباتهم، وخيانة عظمى لخزاناتهم"، لأجل ذلك كتب على جدران مكتبته: "زيارتك تسرُّنا، وإعارتك للكتب تضرُّنا، فلا تفسد الزيارة بالإعارة!". ولعلّ هذه الشدة في إعارة الكتب انبثقت من تجربة شخصية جعلته يخشى على محبّيه من الضياع؛ فيقول في مقالته الآنفة عن الإعارة: "أرى أنه من المفيد أن أذكرَ قصة وقعَت لي مع صديق عزيز طلبَ مني كتابًا في"تاريخ دولة الموحدين" للدكتور علي الصلابي، فترددتُ كثيرًا

في إعارته له، وأنا شديدُ البخل على كتبي، ولكنه ألحَّ وأصَرَّ عليَّ ووعدني أن يرده في أقلَّ من أسبوع، فاستحييتُ منه وأعَرتُه له على مضض، وبعد مرور أسبوع طلبتُه منه، فقال: لم أكمِلهُ بعد، فزدتُه أسبوعًا آخرَ، ثم سألته فقال: والله لم أكمله، فزدته أسبوعًا آخر وقد ضاق صدري بذلك، وبعد انقضائه ذهبتُ إلى بيته لأطلبه منه، فقال لي وعلى وجهه مُسحة من حياء: كم ثمنه أخي ربيع؟ فاتَّسعَت حدقتا عينيَّ من الدهش، وقلتُ: لماذا؟ فقال: أريد أن أشتريه لك؛ فقد أخذَته ابنتي الصغيرة ولم أنتبه لها، وألقَته في الماء! فقلتُ كاظمًا غيظي: أعطني الكتاب كما هو، دون أن تكلف نفسك بشرائه؛ فهو نادر وغيرُ موجود في مدينتنا، ولكن لا تُحدِّث نفسك مرة أخرى بإعارة أي كتاب مني، فوافقَ بأسف، وأخرج لي الكتاب وقد لعبت به يدُ الصبية، وعبث به الماء، فجعله كقطعة قُماش بالية!" اهـ.

لكن الجميل في الأديب ربيع السملالي، أنه لم يبخل بتجربته هذه على الناس، بل جهر بهذا الحب العنيف، وأوقد في قلوب الكثيرين نورًا جعل كل من يتابعه يسعى لمنافسته والسير على نهجه. ولأنّ من بركة العلم بذله؛ تَراه يبذله بسخاء من خلال التعريف بالكثير من الكتب في الأدب والدين واللغة، وكذا التحذير من الطبعات السيئة من خلال سلسلته القيمة "حمّالة الحطب"، والإرشاد إلى منهجية القراءة انطلاقًا من تجربته الشخصية، والتّحريض المُلحّ عليها: "يا طلاّبَ العلم والأدب، دُونَكُم نصيحةَ شابّ

ثلاثيني عاشَ أجملَ أيّامه في أحضان الكتب، نصيحة لا يريدُ من ورائِها جزاءً ولا شكورًا:

ادفعوا عنكم الكسَلَ والخمولَ وأنتم تقرأون وتطالعونَ الكتبَ والرّسائلَ والمجلاّتِ، واتخذوا كُرَّاسةً لكلّ فنٍّ من الفنون لتسجيل الفوائد والفرائد التي تَعرض لكم، فمع مرور الأيّام وتعاقب اللّيالي ستجدونَ ثمراتِ هذه الفوائد، وقد ترتّبونها وتهذّبونَها وتطبعونها بين دَفتي كتاب، ويستفيدُ منها غيركم..كما فعل كثير من أهل العلم والأدب قديمًا وحديثًا(!).

ولقد أقرّ له الكثير من الناس بهذا الفضل كبيرهم قبل صغيرهم، ومثقفهم قبل جاهلهم، تقول الأديبة الأنيقة الدكتورة صفية الودغيري- تعليقًا على أُمْنية ربيع السملالي في إنشاء مكتبة عامة يستفيد منها عموم القراء مجانًا-: "أنت أنشأتها يا ربيع القلم الحر من غير أن تشعر.. أنت صنعت مكتبة متحركة من خلال ما تنشره وتكتبه من مقالات أو رسائل أو خواطر أو أدب رفيع أو نثر فريد أو نكت علمية أو فوائد نفيسة.. وأنت قربت المكتبة على اختلاف فروعها وفنونها للقراء وحبَّبت إليهم القراءة والارتباط بالكتاب ارتباطًا وثيق الوشائج، ونفضت الغبار عن سلسلة من الكتب ما عاد القارئ من أبناء هذا الجيل يهتم لشأنها أو يعرف بوجودها.. وجعلت الكثيرين يعشقون الأدب ويرغبون في الإقبال عليه بحب بعد أن زهدوا فيه أمام هذه التحديات المعاصرة.. وبالتالي الذي يسر لك أن

تحقق هذا الحلم العظيم لقادر على أن يحقق لك هذا الحلم الذي تنشده ويبلِّغك غايتك النبيلة ومقصدك الحميد. ومن جدَّ في الطلب لابد وأن يفتح له الباب".

فأنْ تحيي في النفوس حب القراءة، وتصالح العقول مع الكتاب، وتوقظ الهمم الراكدة في مستنقع الكسل، ليس بالأمر الهيّن، بل هو عملٌ جليلٌ وفضلٌ عظيمٌ يُغبط حامل مشعله، خصوصًا في زمنٍ يناصب العداء للعلم ومن سار في دربه الصحيح. وقد كان له- بعد الله تعالى- فضل عظيم عليّ لا أفتأ أذكره كلما دبّجت مقالًا أو حلّقت في سماء كتاب، فبعد انقطاعي الطويل عن القراءة والكتابة، استطاع بفضل توجيهاته ونصائحه أن يعيد لنفسي ذاك الرواء الذي كانت تفتقده بسبب انغماسها في متاهة المرض والعمل. منشوراته المحرّضة على قراءة الكتب، وحديثه عن متعة القراءة ونفائس الفوائد التي يظفر بها، جعلت الكثير من الشباب يهبّ من مرقد الخمول وينتفض للتحصيل العلمي الجادّ، بل أحيانًا حين ينشر رواية معينة ويثني عليها، تجد الكثير من الصفحات على "الفيس بوك" صارت تتحدث عنها، والكثير من الإخوة والأخوات يسارعون لاقتنائها ونشر فوائدها كما هو الشأن مع رواية "ثلاثية غرناطة".

وها هو خاله يصارحه بذلك في جلسة سمَر عائلي قائلًا: "مُذْ قرأت كتابَك "أفكار على ضِفاف الانكسار" وكتاباتك على "الفيس بوك" وجدتني

مدفوعًا بحنين غريب وشوق أغرب لعالم الكتب والقراءة، والمطالعة، ومن يقرأ لك فقطعًا سيحبّ المطالعة؛ لأنّك تُحرّض عليها بطريقة راقية".

ومن باب التحريض على القراءة واقتناء الكتب، ستجد الأستاذ ربيع السملالي لا يفتأ ينشر بين الحين والآخر صورًا لمكتبته- أو صومعته- كما يحلو له أن يناديها، يقول مُخبرًا عن ذلك: "حين أنشر صورًا لمكتبتي على المواقع التّواصلية، أو أنشرُ خبرًا عن كتاب جديد حلّ ضيفًا في بيتي، فلا يعني هذا أنَّني أقصد إلى المباهاة أو الرّياء، فبحمد الله لست سفيهًا حتّى تكون هذه نيتي وهذا تفكيري، لكن مع تجربتي المتواضعة في هذه الحياة فقد وجدت أنّ الصّور أكبر فاعل في تحريض النَّاس على الخير أو الشَّر سواء بسواء، فالإعلام الفاجر مثلًا أليس من مبادئه نشر الفاحشة والتّحريض عليها عن طريق نشر صور المتبرّجات الكاسيات العاريات اللواتي لا يسترن من أجسادهنّ الرّخيصة إلّا العورة المغلّظة! لأنّهم يعلمون علم يقين أنّ مثل هذه الصّور لها تأثير قويّ جدًّا على أصحاب النُّفُوس الضّعيفة من أبناء هذه الأمّة وبناتها!" اهـ.

ولئن كان هذا المجهود الفردي قد آتى من الثمار الخير الكثير؛ فكيف سيكون الحال لو أن جهود الأمة كلها تكاثفت وصبّت كل اهتمامها على إحياء روح القراءة في النفوس، و التحفيز على اقتناء الكتب ونفض الغبار عنها؟

إنّ تفاعل القرّاء الجادين مع هذا النوع من الكتابات يؤكد أنّ أمة "اقرأ" وإن كانت "لا تقرأ" فإن عشق الكتب فيها دفين وينتظر من يحرك سواكنه

ليهُبّ من مرقده، وهذا ما أكدّه ربيع السملالي ذات مرة حين قال : "لاحظتُ أنَّ التّفاعلَ مع منشوراتي ومقالاتي عن القراءة أكثرُ من غيرها، وهذا يدلّ على أنّ أمّة "اقرأ" مازالت تتنفّس.. فقط تحتاج إلى من يوقظها من سُباتها ويدفع عنها الخمول والكسل.. ويبشّرها بغدٍ تشرقُ فيه شمس المعرفة والعلم فوقَ ديارهم التي أغرقها الصّقيع.. صقيع الجهل.. وبرود التّخلّف".

فيا حبّذا لو أنّ شباب الأمّة جعل القراءة همّه كربيع السملالي، وليته لا يكون أنموذجًا أحاديًّا في زمن الجهل والجهالة، ليت الأمة تستفيق من سُباتها وتعلم أن قطار النهضة لا يُسمح بركوبه إلا لمن حمل بطاقة العلم والمعرفة، وغاص في بحورهما بعمق متجرّدًا من أيّ مطامع دنيوية، ليتنا نشعر بالجوع الفكري فنقصد أقرب مكتبة لتغذية أرواحنا، كما نقصد المطاعم عند سماع دويّ أمعائنا، ليتنا نستحضر أمر "اقرأ" كما نستحضر أمر "أقم الصلاة"، ليتنا نجعل من أبجديات حياتنا ما ذكره ربيع السملالي في كتاباته: "أن تدسَّ بين ملابسك وأنت على أهبة السفر كتابًا أو كتابين، كما تدسُّ قارورةَ عطرك الجميل، وقميصَك الأنيق، وفرشاة أسنانك الضرورية."..حينها فقط سنتنفّس الصعداء ونحن نُبصر ركب الأمّة يسير قُدُمًا نحو الأمام!



الزواج من منظور الأدب الرّافعي

– وحي القلم نموذجًا –

شراسة الحياة تزداد كل حين، وخوض غمارها أضحى مغامرة غير مأمونة العواقب، تشعر وكأن البشرية تجرّدت من كل إنسانيتها، وباتت تصارع ذاتها لتصرعها، كنا بالأمس نتحدث عن صراع الحضارات، فبتنا اليوم نتحدث عن الصراع بين الجنسين: أيهما أقوى، وأيهما أجدر بالقيادة، ومن ظلم الآخر وجرّده من حقوقه، ومن تناسى خصوصياته وسطا على خصوصيات الآخر.

الخلافات الزوجية المتكررة، والمشاكل الأسرية التي تتناسل كل يوم بشكل رهيب؛ تجعل المرء يتوجّس خيفة من الزواج ويؤْثر الانزواء في عالمه بعيدًا عن أي منغصّات من طرفٍ آخر غير مسؤول.

عفوًا أخي القارئ..

ما لهذا أتيتُ! وما دار بخلدي أن أهدر دقائقك الثمينة بحديث قد أَلِفته حتى ضاق صدرك به. بل أحببتُ أن تشاطرني متعة سحرٍ تتوق أنفسنا المرهقة لمعانقته، سحر سطّر حروفه ساحر البيان الرافعي في تحفته "وحي

القلم"، سحر يحلق بك في عالم إنساني إسلامي رائع، يجعلك تتوق للانخراط في الحياة الزوجية دون توجّس.. فما أمتع أن يحيا المرء إنسانيته متجردًا من كل المطامع الدنيوية مستشعرًا كل القيم التربوية التي توج الله بها هامته لترقى عن البهيمية التي لا تليق به كخليفة لله في أرضه.

تعال معي أخي القارئ كي نحلّق سويًّا في سماء الرافعي التي نسجت هذا العالم البديع من واقع كان بالأمس ملموسًا وغدا اليوم حلمًا لا نفتأ نرنو إليه دون جدوى.

فرحة العمر عند الفتاة أو الفتى حين تلتفّ الروح بالروح، ويعانق القلبُ القلبَ تحت ظل ميثاق غليظٍ يُعطي العهد بالأمان ويجعل المرءَ يعيش تلك اللحظات بمشاعر تتخطّى حدود الزمن وتسمو في علياء الفرح مردّدة أنّ مثل هذا اليوم "لا يكون من أربع وعشرين ساعة، بل من أربعة وعشرين فرحًا؛ لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب، لا في الزمن، ويكون بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر على النفس بجديدها، لا بقديمها" "وحي القلم" ص.60

ولأنه فرحة العمر؛ كان لزامًا على من ينخرط في سلكه أن يحسن التدبير، ويؤسس لهذا البناء الجديد على بصيرة وهدى من دين الله تعالى، وحسن التدبير ليس مالًا فحسب؛ لأن الكيان الأسري كيان بشري قوامه روح وعقل تآلفَا وامتزجَا فـــ "المرأة للرجل نفس لنفس، لا متاع لشاريه"

وربنا سبحانه قال في محكم كتابه: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا..**﴾ (الأعراف: 189)، فالمرأة تبحث في الرجل عن كيان يحتويها عاطفيًّا وعقليًّا وماديًّا، والرجل يهفو لروح يسكن إليها وينصهر في بحر ودادها ويلمّ بها شعث نفسه المبعثرة، فالمرأة "زوجة حين تجده هو لا حين تجد ماله، وهي زوجة حين تتمّمه لا حين تنقصه، وحين تلائمه لا حين تختلف عليه" "وحي القلم" ص.140

ولهذا حين تقرأ بعض فصول "وحي القلم" تأخذك الرهبة وأنت تقف مع تلك المواقف التي تجسد الإنسانية الحقّة بكل معانيها، مواقف للسلف الصالح يروي فصولها الرافعي بأسلوب ماتع تخرّ له الذائقة ساجدة، تتجسّد أمام ناظريك تلك الأنوثة الزاخرة بالحنان والمودة والعطاء وإنْ في أضيق الظروف، وتلك الرجولة الحانية التي تحدب على الأنثى وترتقي بها إلى أعلى مقام.

انظر- رعاك الله- إلى التابعي الجليل سعيد بن المسيب حين جاءه رسول عبد الملك بن مروان معْربًا عن رغبة أمير المؤمنين في مصاهرته، لكنه أَبَى أن يستجيب لهذا الإغراء، وقال: "أمَا إني مسؤول عن ابنتي، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأني مسؤول عن ابنتي، وقد علمتَ أنت: أن الله يسألني عنها في يوم لعلّ أمير المؤمنين، وابن أمير المؤمنين، وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها" "وحي القلم" ص 137.

ألا يجعلك هذا الموقف تتحسّر على حال البنت اليوم وقد غدت مشروعًا استثماريًّا بين يدي والديها، تُزفّ لمن يُحسنُ الدفع دون أن يُخشى منه المنع؟!

ولئن كان المهر اليوم من أهم أسباب تعسير الزواج، فإن السلف الصالح تعامل مع هذا الجانب تعاملًا شرعيًّا أنيقًا نجا به من مشكل العنوسة، وجعل الشباب يقبل على الزواج وإنْ بأيسر المتاع. وقد أسهب الرافعي في الحديث عن المهر لحظة عرضه لقصة تزويج سعيد بن المسيب لابنته بطالب علم فقير هو عبد الله بن وداعة حيث كان مهرها ثلاثة دراهم، وهو الذي رفض تزويجها بولي عهد أمير المؤمنين بمهر يعدل وزنها ذهبًا لو شاءت. وما هذا إلا لأن التابعي الجليل قدّر في الزواج أنه سنة الأنبياء التي تُعمر بها الأرض بالنسل الشريف الصالح، وليس منفعة مادية يُرجى منها تكثير الدرهم والدينار، بل إن المغالاة في المهر يعتبرها سعيد بن المسيب نوعًا من التدليس؛ فيقول: "يوشك أن يكون المهر الغالي كالتدليس على الناس، وعلى المرأة، كي لا تعلم، ولا يعلم الناس، أنه ثمن خيبتها، فلو عقلت المرأة لباهت النساء بيُسر مهرها، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله، وكفت حماقتها أن تُفسد عليه" "وحي القلم" ص.140

وبما أنّ الزواج الحقّ هو اقتران روحين وعقلين؛ فلِم الاستهانة بكرامة المرأة وجعل قدرها في قيمة مهرها، هي ليست متاعًا كي تُقوّم، بل إنسانة تبحث

عن ذاتٍ تفهمها وتستوعب ضعفها وتحتويه برفق ولين؛ لذا فمهرها الحقيقي ليس الذي تحصل عليه قبل أن تُحمل لبيت زوجها "ولكنه الذي تجده منه بعد أن تُحمل إلى داره، مهرها معاملتُها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا عند نفْس رجُلِها ما دامت في معاشرته. أما الصداق من الذهب والفضة، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس". "وحي القلم" ص.139

فأيّ سمو اكتنف روحك يا ابن المسيّب، وأي لبّ جمّل منطقك!!

المرأة في ديننا ليست دمية للهو والعبث، ولا أداة جامدة لتفريخ النسل، بل إن المرأة لا تبلغ كمال إنسانيتها إلا حين تقترن أنوثتها بذهن حصيف وخلق شريف، لهذا حين تطمح في الاقتران برجل كفء لها؛ إنما تبحث عن إنسان يقدّر إنسانيتها وعقلها قبل شكلها ومظهرها، فيكون مهرها المادي رمزيًّا لاستكمال النكاح الشرعي، لأن نفسها الأبية تأنف أن تجعل قيمتها في دريهمات. من هذا المنطلق كان فقه سعيد بن المسيب لزواج ابنته بشاب فقير وليس بابن أمير المؤمنين، فكانت كلماته رسالة صادحة لكل حرّة أبية أنّ "خير النساء من كانت على جمال وجهها، في أخلاق كجمال وجهها، وكان عقلها جمالًا ثالثًا: فهذه إن أصابت الرجل الكفء؛ يسّرت عليه، ثم يسرت، ثم يسرت، إذ تعتبر نفسها إنسانًا يريد إنسانًا، لا متاعًا يطلب شاريًا، وهذه لا يكون برخص القيمة في مهرها إلا دليلًا على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها، أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة ثمنها

لحسنها، أي: لحمقها، وهي بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن." "وحي القلم" ص.139

فالأب الجيد هو من يبحث لابنته عن رجل يكون أمينًا عليها في دينها قبل دنياها، رجل يكون عكازتها في سيرها إلى الله، وتكون عصاه التي يتوكأ عليها للصمود أمام فتن الحياة وطوارقها، قال الرسول ﷺ: "إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه" "فقد اشترط الدين، على أن يكون مرضيًّا، لا أي الدين كان، ثم اشترط الأمانة، وهي مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرُها أن يكون الرجل للمرأة أمينًا، وعلى حقوقها أمينًا، وفي معاملتها أمينًا، فلا يبخسُها، ولا يُعنتُها، ولا يُسيءُ إليها؛ لأن كل ذلك تلْمٌ في أمانته."وحي القلم" ص 140

ولأن سعيد بن المسيب كان أبًا جيدًا فقد ردّ على أولئك الذين استعظموا رفضه لابن أمير المؤمنين وقبوله بطالبٍ فقير قائلًا: "أما إني– علم الله– ما زوّجتُ ابنتي رجلًا أعرفه فقيرًا، أو غنيًّا، بل رجلًا أعرفه بطلًا من أبطال الحياة، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة، وقد أيقنتُ حين زوّجتها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه، فيتجانس الطبعُ والطبع، ولا مَهْنأ لرجلٍ وامرأة إلا أن يجانس طبعُه طبعَها، وقد علمتَ، وعلم الناس: أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة، وأنها لا تكون إلا هدية قلب لقلب يأتلفان ويتحابّان". "وحي القلم" ص.154

فأجملْ بأبٍ ترتقي معه الأبوة إلى أسمى مراتبها!!

فسمو المرأة بسمو خلقها ودينها وعقلها، ولو فقه الآباء هذا الأمر لحرصوا على غرس بذور الفضيلة فيهن منذ الصغر، حتى تكون الثمرة كتلك التي كان مهرها ثلاثة دراهم، يقول عنها عبد الله بن وداعة: "ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، لقد كانت المسألة المعضِلة تعيي الفقهاء، فأسألها، فأجد عندها منها علمًا". "وحي القلم" ص 145

ولأن هذا الفرع من تلك الشجرة المثمرة؛ فلا تعجب إنْ رأيت هذا التابعي الجليل يأتي بما بات عندنا ضربًا من الأحلام، فمن دوحة النبوة تفرع ذاك الفهم الثاقب وتلك الروح السامقة، ومن نبعها تشرّبت نفسه عزّة الدين ومتانته حتى غدت الدنيا متاعًا لا يَأبه به. فقد رُوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: "روينا أنّ عمر رضي الله عنه كان ينهى عن المغالاة في الصّداق، ويقول:" ما تزوّج رسول الله ﷺ، ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم" ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة، لسبق إليها رسول الله ﷺ" "وحي القلم" ص.138، بل إنه- رضي الله عنه- عايش ظروف نساء النبي ﷺ، وشاهد شظف العيش الذي كنّ فيه، ورغم ذلك لم تُسمع لهنّ أناة؛ لِيَقِينهن أن الآخرة خير وأبقى. وماذا تبغي من كانت للرسول ﷺ زوجة ورفيقة: حازت خير الدنيا والآخرة، وما سَقَط المتاع إلا زينة سرعان ما تبلى!! يقول بن المسيب- رحمه الله-: "وأنا

فقد دخلتُ على أزواج رسول الله ﷺ، ورأيتهنّ في دُورهنّ يُقاسين الحياة، ويعانين من الرزق ما شحّ درُّه، فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، وهنّ على ذلك، ما واحدة منهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها". "وحي القلم" ص -154، ويقول في موضع آخر: "رأيتُ أزواج النبي ﷺ فقيرات مقتورًا عليهن الرزق، غير أن كُلًّا منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوي، في دار صغيرة فرَشتها الأرض.. ولكنها من معاني ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران". "وحي القلم" ص 146، ولهذا فالمرأة المؤمنة حين تُرزق بالرجل المتدين الخلوق يصبح من فروض العبادة لديها أن تتزين بالصبر وتتحلى بالقناعة وتجعل قدوتها وأسوتها نساء الرسول ﷺ اللواتي عشن في الدنيا على الكفاف والقناعة رضا بقدر الله ومحبة في رسول الله ﷺ، فبقين على مرّ التاريخ الأسوة والقدوة وبقيت أنوثتهن في ارتقاء دائم، بل إن: "أنوثتهن أبدًا صاعدة متسامية فوق موضعها بهذه القناعة، وبهذه التقوى، ولا تزال متسامية صاعدة". "وحي القلم" ص.154.

وعلى الرجل أن يكون لبِيبًا فطِنًا في تعامله مع هذا الكائن الضعيف الذي يتنزّه عن الإقرار بضعفه إلا بين يدي قوة خارقة تقتحم ساحة قلبه فتحتويه الاحتواء كله "المرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تقرّ بالضعف، إلا إذا وجدت رجُلها الكامل، رجلها الذي يكون معها بقوته، وعقله، وفتنته لها، وحبّه إياها". "وحي القلم" ص 164-163.

واعلم أيها الرجل أن "المرأة لا تكون امرأة حتى تطلب في الرجل أشياء: منها أن تحبّه بأسباب كثيرة من أسباب الحب، ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف، فإذا هي أحبته الحبّ كله، ولم تخف منه شيئًا، وطال سكونه وسكونها، نفرت طبيعتُها نفرةً كأنها تُنخّيه وتذمرهُ، ليكون معها رجلًا، فيُخيفها الخوف الذي تستكمل به لذّة الحبّ، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل أن يقسُوَ عليه الرجل في الوقت بعد الوقت، لا ليؤذيه، ولكن ليُخضعه، والآمر الذي لا يُخاف إذا عُصي، هو الذي لا يُعبأ به إذا أطيع أمره".- من كلام أبي معاوية الضرير "وحي القلم" ص: 167 -

فمتى كان هذا الوعي الإنساني أولًا والديني ثانيًا، من الأهل بدءًا ثم من الزوجين؛ فإن الأسرة المسلمة ستحيا في جو من الألفة والمودة التي امتدحها الله تعالى في كتابه العزيز وجعلها من آياته الكونية ودلائل عظمته سبحانه: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: 21] وستخِفّ وطأة هذه الصراعات بين الزوجين، ويتزوّد كل منهما بما يعينه على تحمّل تبعات مسؤوليته حتى يلقى الله تعالى وقد أعدّ الجواب لسؤاله عما استرعاه الحق سبحانه، يقول الرافعي: "متى كان الدين بين كل زوج وزوجة، فمهما اختلفا وتدابرا، وتعقدت نفساهما، فإن كل عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقة حلها، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وهو اليسر،

والمساهلة، والرحمة، والمغفرة، ولين القلب، وخشية الله، وهو العهد، والوفاء، والكرم، والمؤاخاة، والإنسانية، وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيقة" "وحي القلم" ص: 173.

إنّ بيوتًا تُؤسس لَبِناتها على الحبّ والدين بيوت عامرة بأهلها، على أكتافها تُبنى الأمة، ومن رحِمها تُنجَب الذرية الصالحة التي تحمل همّ إصلاح ذواتها ومجتمعها.. ومن رياضها يفوح عبق الوفاء الذي روى أبو خالد الأحول الزّاهد أحد فصوله حين قال: "لمّا ماتت امرأة شيخنا أبي ربيعة الفقيه الصُّوفي؛ ذهبتُ مع جماعة من النّاس، فشهدنا أمرَها، فلمّا فرغوا من دفنها، وسُوِّيَ عليها، قام شيخنا على قبرها، وقال:

يرحمك الله يا فلانة! الآن قد شفيتِ أنت، ومرضتُ أنا، وعوفِيتِ، وابتليتُ، وتركتني ذاكرًا، وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بكِ معنى، فستكون بعدك بلا معنى، وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتكِ لي نصف الضَّعف، وكنتُ أرى الهموم بمواساتك همومًا في صورها المخفّفة، فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة، وكان وجودكِ معي حجابًا بيني وبين مشقّات كثيرة، فستخلُص كل هذه المشاقّ إلى نفسي، وكانت الأيام تمرُّ أكثر ما تمرّ في رقتك، وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجرِّدة في قسوتها، وغلظتها! أما إنّي- والله!- لم أُرْزأ منك في امرأة كالنساء، ولكنّي رُزِئتُ في المخلوقة الكريمة، التي أحسستُ معها أنّ الخليقة كانت تتلطّف بي من أجلها!" "وحي القلم" ص: 253.

فيا من أضحى الزواج في عُرفكم متعة سرعان ما تنقضي، وديكورًا اجتماعيًّا يؤثث حياتكم الشخصية، عيشوا إنسانيتكم قبل الزواج ولقّنوا تلك الأمّارة بالسوء فنون الأدب والمعاشرة الطيبة، ارتقوا بتفكيرهم ولا تجعلوا إشباع شهواتكم غاية أملكم، تعلموا فقه الزواج من السلف الصالح قبل أن تخوضوا غماره، واجعلوا معايير انتقائكم قائمة على سلامة الدين واستقامة الخلُق عسى تستقيم حال أمتنا!!



فلسفة الحجاب

اللباسُ ليس مجرد قطعة قماش يرتديها المرءُ، بل هو حكايةٌ ناطقةٌ تروي لمن أبصرها مقومات شخصيةِ مُرتديه، واختيارات المرءِ قطعة من شخصْه وفكره؛ لذا ارتضى الله تعالى أن يجعل للمسلمات سمْتًا خاصًّا يُعلنُ لكل من يبصرهنّ أنهنّ حرائر عفيفات، بعيدات عن الابتذال والخنَا، فأوجب عليهن لبس الحجاب وستر عورتهن صيانة وحماية لهن.

وقد كثر في الآونة الأخيرة الحديث عن زيّ المرأة المسلمة دون غيرها، وثارت ثائرة أعداء الدين حين أبصروا إقبالها عليه، فصارَ يُحاربُ هنا كما هناك، وكأنه قنبلة موقوتة تهدّد أمن البشرية واستقرارها. ولا أدري لمَ نُسأل عن لباسنا وهمْ لا يُسألون! تقول "تبسّم روبي"- المختصة في قضايا المساواة بين الجنسين في جامعة ميشيغان الغربية-:

"إنّ لكل المجتمعات والثقافات الزيّ الخاص بها، فالمجتمعات الإسلامية ليست استثنائية في هذا الصّدد. لكن إذا كانت المرأة في الغرب لا تُسأل عن سبب ارتدائها الملابس القصيرة والمكشوفة، فلماذا إذًا نتساءل عن الحجاب؟!"

والمنصفون في الغرب يصرخون فينا أن نلزم شرعنا ولا نحيد عنه؛ حيث وجهت الصحفية والكاتبة الأمريكية جوانا فرانسيس خطابًا للمرأة المسلمة قالت فيه:" سوف يحاولون إغراءكنّ بالأشرطة والموسيقى التي تدغدغ أجسادكنّ، مع تصويرنا نحن الأمريكيات كذِبًا بأننا سعيدات وراضيات، ونفتخر بلباسنا مثل لباس العاهرات، وبأننا قانعات بدون أن يكون لنا عائلات.. في الواقع معظم النساء غير سعيدات، صدقوني؛ فالملايين يتناولن أدوية ضد الاكتئاب، ونكره أعمالنا ونبكي ليلًا من الرجال الذين قالوا لنا بأنهم يحبوننا، ثم استغلونا بأنانية وتركونا. إنهم يريدون تدمير عائلاتكن، ويحاولون إقناعكن بإنجاب عدد قليل من الأطفال. إنهم يفعلون ذلك بتصوير الزواج على أنه شكل من أشكال العبودية، وبأن الأمومة لعنة، وبأن الاحتشام والطهارة عفَا عليهما الزمن وهي أفكار بالية" ثم بيّنتْ كيف أن هذا السفور دمّر نفسية المرأة فقالت: "في الواقع نحن اللواتي يخضعن للاضطهاد، نحن أسرى الأزياء التي تحطّ من قدرنا، ويسيطر علينا هوَس وزن أجسامنا".

ومن ذاق عرف، فها هي ذي شاهدة من ذاك العالم الذي افتتنت به النساء المسلمات، تصرخ فينا أن نعضّ بالنواجذ على شرعنا، ونستمسك بعروة ربّنا، ونحرص على جمال لباسنا لأن فيه صونًا لكرامتنا ومستقبلنا. تصرخ بعد أن أعياها امتهانُ الغرب لها، وأتعبها ذاك التفسخ العائلي والفراغ

الروحي والتشتت الفكري؛ لهذا حين نتحدث عن الحجاب، فنحن لا نقصد به لباس المرأة الظاهر فحسب، بقدر ما نقصد ما ينطوي عليه من قيم أراد ربّنا أن تترسخ لدَى كل أنثى قناعةً ورضىً بشرع ربّها.

فالتعامل مع الحجاب– إذًا– يجب أن يكون تعاملًا شموليًّا لا ينحصر في تلك الخِرقة التي توضع فوق الرأس، أو ذاك الزيّ السابغ المسدل على الجسم. بل هو كيانٌ قائم بذاته لمن عرفت قدره وقيمته. إنه مدرسة تلِجها الفتاة المسلمة منذ صغرها، فتتأدب من خلاله بخِلال الإسلام، وتستقي من فيضه جرعاتِ صمودٍ في وجه المحن، وسراجٌ ينير لها كلّ العتمات التي تُرْبك سيرها في الحياة.

إنه– كما قال الرافعي– "كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحه الدينية المعْبديَّة، وهو كالصَّدفة لا تحجب اللؤلؤة ولكن تربيها في الحجاب تربية لؤلؤية؛ فوراء الحجاب الشرعي الصحيح معاني التوازن والاستقرار والهدوء والاطّراد."

وحجاب المرأة– كما قيل عنه مرارًا– ليس حِكرًا على شريعة الإسلام، فقد جاء الخبر بوجوده بدءًا في العهد الآشوري "القرن الثالث عشر قبل الميلاد"، وكان حكرًا على النساء الطاهرات الماجدات، محظورًا على المُومسات والنساء الأكثر شيوعًا، ولعل في هذا دلالة رمزية لقيمة هذا الزيّ وأبعاده عند كل عاقل قديمًا وحديثًا. كما أنه ثابت في الكتب المقدسة

كالتوراة والإنجيل، لكن مشكلة "الآخر" في تلك البصمة الإسلامية التي تثير أفئدة الحاقدين فتجعلهم ينفثون كل السموم لمحاربته.

ولن تعِي فائدة الحجاب إلا من تشبّعت روحها به، وآمنت به إيمانًا لا تخالطه ريبة. وما من جدال بين النساء اللواتي أنعم الله عليهن بارتداء الزيّ الشرعي أنه غيّر كثيرًا من شأنهن وأمور حياتهن سواء على المستوى النفسي أو الفكري أو الجسدي، وحسبها مغْنمًا في الدنيا تلك السكينة التي تداعب أنفاسها بمجرد ارتدائها له، وذاك المدد الربّاني الذي يشدّ من أزرها كلما تعثرت بها الخُطى. تقول "تبسّم روبي": "إنها لم تتفاجأ بارتباط الحجاب بصورةٍ ذاتيةٍ أفضل لدى النساء؛ لأن ارتداء الحجاب يمكن أن يكون تحريرًا بالنسبة لبعض النساء؛ حيث أنه يتيح لهن التركيز على عقولهن، وليس أجسادهن". وهذا ما أكد عليه أمير البيان الرافعي:" وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت؛ لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم، قانون العرض والطلب؛ والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الطرق والأسواق".

ولا يخفى على كل لبيب اليوم؛ ما تعانيه المرأة حال سفورها من هوسٍ شديد بجسدها ولباسها، فهي في صراع مستميت مع وزنها وهوسٍ شديد بالموضة وتقلباتها، فتارة تسعى للتخسيس لأن الموضة تحكم بذلك، وتارة تميل للزيادة في وزنها أو في أجزاء من جسمها محاكاة لمستجدات العصر،

وطورًا تبصر شعرها أشقر، وتارة أحمر، وتارة أسود، فلا يكاد "المسكين" يثبت على حال، فيفقد كل معايير الجمال بعيدًا عن المحسنات الجمالية.

وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن ارتداء الحجاب له آثارٌ إيجابية على صحة المرأة النفسية والجسدية، يقول "فيرين سوامي"- عالم النفس بجامعة وستمنستر-: "كانت هناك ثلاث أو أربع دراسات سابقة تظهر أن أصحاب الملابس المحافظة المحتشمة لديهم صورة ذهنية صحية عن أجسامهم" وأكد أنّ النساء المحجبات- اللواتي شملهن استطلاع للرأي- كانت وجهات نظرهن أكثر إيجابية لأجسادهن فقد أعْربن عن تقديرهن لأجسادهن، ولم تكن لديهن نفس الرغبة في خسارة الوزن، ومعايير الجمال التي كانت تروِّج لها وسائل الإعلام لم تكن تستهويهنّ؛ ولهذا فهو يرى أن الحجاب "يوفر نوعًا من الحماية ضد تشيء المرأة وحصرها في قالب جنسي".

كما أثبتت الدراسات العلمية أن الحجاب "يحافظ على الطاقة الحرارية في الجسم، ويحمي شعر المرأة من التغيرات المناخية والأشعة فوق البنفسجية التي تضر بالأنثى أكثر من الذكر، وذلك لأن سُمك طبقة الدهون تحت جلد المرأة أعلى من سمك طبقة الدهون تحت جلد الرجل. والأشعة فوق البنفسجية تتفاعل مع هذه المواد البروتينية تحت الجلد وتؤدي إلى أمراض متعددة منها سرطانات الجلد، وتساقط الشعر، ومنها تقيحات أحيانًا في فروة الرأس، كما يؤدي إلى جفاف الشعر". يقول الدكتور محمد ندا: "الحجاب حماية للشعر.. فقد أثبتت البحوث أن تيارات الهواء، وأشعة الشمس المباشرة تؤدي إلى فقدان

الشعر لنعومته، وشحوب لونه، فتصبح الشعرة خشنة جرباء (باهتة)، كما ثبت أن الهواء الخارجي "الأوكسجين الجوي"، وتهوية الشعر ليس له أي دور في تغذية الشعر، ذلك أن الجزء الذي يظهر من الشعر على سطح الرأس وهو ما يعرف بقصبة الشعر عبارة عن خلايا قرنية ليس بها حياة".

وحتّى لو لمْ يُثبت العلم شيئًا من هذا النتائج؛ فيقيننا نحن كمسلمين أنّ "جلبُ المصلحة ودرءُ المفسدة" قاعدةٌ أساسٌ في ديننا الحنيف وعليها مدار الأحكام الشرعية؛ لهذا فالمؤمن على يقين تامٍّ أنّ مأمورات الله تحوي في طياتها خير الدنيا والآخرة، ومنهياته وبالٌ على من اقترفها.

ولأنّ زمننا هو زمنُ التّحرش بامتياز، فإن الحجاب الحقيقي خير حافظ للأنثى من هذا السوء. وقد اطلعتُ مرّة على فيديو يعرض تجربةَ تحرشٍ بفتاة بروسيا تَظهر مرة محجبة وأخرى سافرة، والمثير في التجربة أن غير المحجبة لم يأبه بها أحد وهم يبصرونها تُهان من طرف ذاك الشاب، فكأنّ لسان حالهم يقول "ذاك شأنها هي تستحق". لكن المحجبة في كل مرة كانت تجد شبابًا مسلمًا يدافع عنها، وكأنها بحجابها تحمل رسالة ناطقة تصرخ في العابرين أنها ليست للعموم، وأنّها ملكٌ شخصي يُحظر لمسه أو ابتذاله. فأكدّ أصحاب الفيديو- عن قصد أو عن غير قصد- أن الحجاب الشرعي صيانة للمرأة من التحرش، ولباسُ وقارٍ يزيدها هيبةً ويُسخّرُ الله به جُنْدًا للذوْذِ عنها.. فهَلّا استمسكتِ بغرزه أختاه!!

وحسبكِ نداء الاستغاثة هذا ممن ذاقت ويلات الابتذال، وتجرّعت مرارة الضياع والهوان. تقول الصحفية والكاتبة الأمريكية "جوانا فرانسيس": "فلا تسْمحنَ لهم بخداعكنّ، ولتظل النساء عفيفات طاهرات.. نحن بحاجة إليكن لتضربن مثلًا لنا لأننا ضلَلْنا الطريق. تمسّكنّ بطهارتكنّ، وتذكّرْنَ أنه ليس بالوسع إعادة معجون الأسنان داخل الأنبوب؛ لذا فلتحرص النساء على هذا المعجون بكل عناية".

ونقل الرافعي في "وحي القلم" ما كتبته كاتبة إنجليزية زارت مصر وانبهرت بما رأته من مظاهر الحجاب بين النساء، فكتبت مقالة بعنوان "سؤال أحمله من الشّرق إلى المرأة الغربية" قالت فيه:

"إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيرًا، وهذا التنافس الجنسيُّ، وتجريد الجنسين من الحجُب المشوِّقة الباعثة، التي أقامتها الطبيعة بينهما، إذا كان هذا سيُصبح كلّ أثره أن يتولّى الرّجال عن النساء، وأن يزول من القلوب كل ما يحرّك فيها أوتار الحبّ الزوجي، فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد والله تضطرنا هذه الحال إلى تغيير خططنا، بل قد نستقرّ طوعًا وراء الحجاب الشرقي؛ لنتعلم من جديد فنّ الحبّ الحقيقيّ".



صرخة أنثى

ينْتابني أحيانًا شعور بالشفقة على الأنثى وأنا أقرأ لأولئك الذين يُنَظِّرون لحياتها بعيدًا عن الإطار الإنساني الإسلامي الذي ارتضاه الله لها. تكاد تقتنع بلا أدنى مُواربة أنهم يتحدثون عن كائنٍ فاقدٍ للأهلية، ضعيف لا حول له ولا قوة، كائن أصم أبكم معزول عن العالم يُساق ولا يحق له أن يتلمّس معابر النور بعيدًا عن توجيهاتهم.

لا أحِبّ ذاك الخطاب المتشدد الذي يُمعن في عزل المرأة فيحجبُ عنها كل منافذ الحياة ويُلْزمها الانزواء في بيتٍ لا تبْرحه حتى الممات. خطاب دأَبَ بعض فقهائنا على الترويج له حتى عدّوا المرأة تلك "الحُرمة" التي يحرُم عليها ممارسة الحياة بعيدًا عن ظلّ رجل يقومّ اعوجاجها. خطابٌ ظلم المرأة حتى جعلها تشكك في إنسانيتها وكفاءتها ككائن حيّ موكولٍ بخلافة الأرض بمعيّة الرجل.

كما لا يشدّني ذاك الخطاب المتحرر الذي يحث المرأة على التمرد على أنوثتها ومسابقة الرجل في كل الميادين. خطابٌ روّجت له تلك الجمعيات الحقوقية التي باتت تنبت كالفطر في كل مكان، حاملةً رسالةً ظاهرها الإصلاح وباطنها زرع الفتنة في صفوف النساء للانسلاخ التّام عن



كل القيود حتى الشرعية الثابتة في أصول الدين.

وأحتقر ذاك الخطاب الذي لا يرى في المرأة إلا الجسد والمتعة، فيجعلها سلعة رخيصة تباع وتشترى وأداة محضة للغواية والإغراء، خطابٌ امتطى صهوته ذئاب بشرية ألغتْ من قاموسها كل قيم الحياء والمروءة، وامتهنت بسياستها البغيضة هذا الكائن الجميل، فاختزلته في جسدٍ يحقق المتعة ويدرّ الأرباح الطائلة، بل ويُغير بخبث السياسات العامة لكثير من الدول.

لكن يأسرني ذاك الخطاب الإنساني العقلاني الذي ينظر للمرأة على أنها عنصر فعّال في البناء الإنساني، كائنٌ متكامل بحكم الخِلقة الإلهية- وإن كان فيه نقصٌ فهو بمقتضى الجِبِلّة ودليل على الجمال والإعجاز الرباني-. خطابٌ تستشف منه الرأفة لا القسوة، والفخر لا الازدراء، والعقلانية لا السذاجة. يقول "علي القرني" مخاطبًا المرأة الصالحة:" أنتِ الطهر، وأنت الفضيلة، وأنت السُّمُوُّ، والطهر لا يقتدي بالرِّجس، والفضيلة لا تقتدي بالرذيلة، والسمو لا يقتدي بالسُّفْل". نصيحة جميلة في ثوب أنيق بعيدٍ عن الابتذال، سامق المعاني من روح أيقنت كُنه المرأة فأنزلتها منزلها المبارك.

هي "أنثى الإنسان" من الناحية الوجودية كما قال فريد الأنصاري- رحمه الله-، عزيزةٌ نفسًا وصورة، لها أن تحرص على كل ما يرقى بفكرها وشكلها في حدود الضوابط الشرعية، "فليس الإسلام أن تبتذل المؤمنة في مظهرها حتى تبدو كالعجوز التي لا يناسبها ثوب البتة، أو كما قال أهل

المرقعات من جُهال العبّاد أو الصعاليك! فتخرج على الناس في مزق من الأثواب، بادية التجاعيد والانكماشات! إن الفتاة المؤمنة لا يريد الإسلام أن يكون منظرها بشعًا، ولا منفِّرًا، بل يجب أن يكون محترمًا، يوحي بالجِدّ ويفرض على الناظرين الإجلال لها، والتقدير والتوقير. وإنما يحرم عليها أن يكون لباسها إغواءً أو إغراءً"

و "لو كانتْ المرأةُ مجردَ لحم ملفوف في ملابس منمّقة، لتركناها وذهبنا لأقرب جزّار من حيّنا، ولعرّجنا بعدَ ذلك على أصحاب المحلّات الفاخرة لنلفّ ذلك اللّحم البقَري في فُستان يسرّ الأعين الجائعة التي تنتظر مرور النّساء بشوق آثم.. ولكن المرأة مخلوق أكبر من ذلك بكثير، فهي روح عُلوية لا يدرك كنهها إلا من كان يأوي إلى ركن شديد، ولم تتدنّس فطرته بخبائث الغرب الذي جعلَ من المرأة عورةً تمشي على الأرض" كما قال الأديب المغربي ربيع السملالي.

فهذا النوع من الخطاب الذي "اعتدلتْ مبانيه، وعذبت معانيه، واستسلس على ألسنة ناطقيه، ولم يستأذن على آذان سامعيه"- كما قال سيبويه- يقع في نفسي موقعًا حميدًا؛ لإحساسي بنضج صاحبه عقديًّا ومنطقيًّا. ولملامسته واقع الحال بعيدًا عن أي تنطّع وازدراء.

أخي الرجل:

إنني كأنثى مسلمة أعترفُ لكَ بأنني لا أشعر بأدنى نقصٍ، بل أفتخر

بأنوثتي التي ارتضاها الله لي، وأسعدُ حين أقرأ في مصادر تشريعي الأصلية ذاك الفخر العظيم الذي تحدّث به ربّي عني، وذاك الاهتمام الراقي الذي جسدته سيرة الحبيب- ﷺ- بالمرأة زوجة، وأمًّا، وبنتًا، وفردًا مهمًّا من أفراد هذه الأمة.

سَاوَى بيننا ربّنا في الخطاب التكليفي، كما في الحقوق المدنية والحقوق العامة ولو كانت لك ميزة غير ما تفضل به ربي عليك؛ لَمَا جعل ثواب عملنا واحدًا، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوَ أُنْثَى وَهوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ (النحل: 97). فلستُ بحاجة منك لترخيصٍ ولا تفويضٍ لأتنفّس عبير الحياة وأمارسها قيامًا بواجب التكليف، مادام ربّ العزة أعطانِيه مِنَّةً مِنْهُ و تفضّلًا.

واقرأ إن شئتَ قول الحق سبحانه: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الأحزاب: 35).

ألا تُبصر معي ذاك العدل الرباني في أبهى صوره، آية- كما قال إسماعيل الكبسي- "تجمع بين الرجل والمرأة في مشكاةٍ واحدة، وفي مقامٍ رفيع، وتشع بحقيقةٍ هامة، هي أن الرجل والمرأة في المجتمع المسلم؛ ركنان

أساسيان لسلامة البناء، وخليتان متحدتان لبناء الجسد السليم، ووجهان متقابلان لشخصيةٍ متميزة، هي شخصية الأمة المسلمة... فلا تستقيم حياة الأمة إلا بانطلاق الاثنين على الطريق، ولا عذر لرجلٍ ولا لامرأةٍ عن التخلف عن مهمة الفريق، فكلاهما عضوٌ فعالٌ في نيل الفوز والتوفيق... وكلاهما عند الله موعودان بأجرهما فلا حائل بين كل عبدٍ وبين ربه، ولا وساطة بين الله وبين عبدٍ مخلصٍ في حبه."

وتأكيدًا لهذا المعنى يقول الشيخ "محمد علي الصابوني" في مقالة بعنوان "المرأة ليست بنصف عقل": "المرأة- في نظر الإسلام- كاملة الأهلية، ومن أجل ذلك كلفت بجميع التكاليف الشرعية التي كلف بها الرجل، من الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وسائر الواجبات الدينية، وكيف لا وقد قال النبي ﷺ "النساء شقائق الرجال" أخرجه أبو داود والترمذي، ومعناه أن المرأة مثل ونظير الرجل، لأن الشقيق في اللغة: المثل والنظير، ولو كانت المرأة بنصف عقل الرجل، لخُفّفت عنها الأحكام، كما رفعت عن المجانين والصبيان، فمن شروط التكليف كمال العقل، ولهذا جعله العلماء أصلًا في وجوب الأحكام".

حُرِّيتي ملَّكني إياها ربّي حين خلقني من بطن أمي، والفاروق رضي الله عنه قال:" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا" وأنا من الناس.

كرامتي محفوظة بهذا الخطاب الربّاني "ولقد كرّمنا بني آدم" وأنا من



بني آدم. فلمَ التناطح لأجلي تناطح الديكة؟!

من حقي أن أتعلم وأن أمارس العمل الذي يوافق قدراتي دون تجاوز الحدود التي فرضها ربي عليّ، فأتجنب السفور والخضوع بالقول، وأتجنب مواطن الفتن كما أوصاني خالقي، وأبتعد عن الاختلاط ما استطعت لذلك سبيلًا، فإن لم يكن له سبيل فأخلاقي وتحركاتي خير رسول عني، ومن لم تؤدبه النصوص أدبته المرأة بعفتها وجديتها وانضباطها.

أعتز بأمّنا أم سلمة- رضي الله عنها- تلك المرأة الفطِنة التي أكدّت بحكمتها رجاحة عقل المرأة، وأنقذت الصحابة الكرام من غضب الله ورسوله.

وأفتخر بأمنا عائشة- رضي الله عنها- معلمة الرجال التي وردت الآثار بتعظيم قدرها وعلوّ كعبها في العلم والفقه والشعر؛ حتى قال أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه-:" كنّا إذا أشكل علينا أمر سألنا عائشة" وقال الأحنف:" سمعت خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء إلى يومي هذا؛ فما سمعتُ الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن من فم عائشة".

وكم تنتشي روحي وأنا أقرأ سيرة تلك الأنصارية المجاهدة الشجاعة نسيبة بنت كعب- رضي الله عنها- التي أبلت البلاء الحسن في عدة غزوات مع الرسول- ﷺ- وكذا في حروب الردة، وقاتلتْ دفاعًا عن نبيها ودينها، وأعطت درسًا عمليًّا في كفاءة المرأة وقدرتها على تحمل الصعاب

متى دعا الداعي لذلك.

ولم يخْلُ تاريخنا الإسلامي فيما بعد من نماذج نسائية مشرقة، أعطت درسًا في الأنوثة المستقيمة التي تعيشُ ذاتها بكل استقلالية بعيدًا عن القيود المصطنعة التي اختلقها الذكور لأسباب ترجع لفهمهم القاصر لهذا الكائن البشري وما خُلق لأجله.

لهذا؛ حين أقرأ مواضيع عن المرأة أكاد أتميز غيظًا وأنا أرى تركيزهم على من ساءت منهن، وتفننهم في قذف من انحرفت منهن، غافلين عن النساء المناضلات المربيات المتفوقات في شتى القطاعات. فيكون هذا مدعاة لشعور كل أنثى بالقهر ومحاولة كسر ذاك الطوق الذي يشعرها بالدونية. ولو أنصف الرجل حاله لانكبّ على تحليل واقع أبناء جنسه، بدل التفرغ التام لانتقاد المرأة ومناصبتها العداء في كتاباته وواقع حياته. وقد أنصف "عبد الله الجعيثين" حين قال: "حين أردتُ تأليف كتاب "قالوا في المرأة" وجدتُ أمامي أقوالًا لا تُعَدُّ ولا تحصى قالها الرجال في النساء وأكثرها أقوال تنتقد المرأة وتسخر منها أو تبين مثالبها أو تتخذ موقف العداء منها... وحين أردت تأليف كتاب مقابل بعنوان "قالوا في الرجل" لم أجد من الأقوال التي تستحق التدوين، إلا القليل، بل أقل القليل، وكنت أريد أقوالًا للمرأة في الرجل تنتقده كما انتقدها وتشرح حالته النفسية كما شرحها، ولكن يبدو أن المرأة أقوى من الرجل في هذه الناحية، فقد تركت له الأقوال وقامت بالأعمال!. لقد تركته يهذي ويصرخ

ويسب ويهجو بينما هي تعمل وتنال ما تريد وتتركه مقهورًا ينفّس عن قهره بالأقوال والسخرية والهجاء!".

صرختي هذه ليست دعوة للتحرر ولا للتحلل مما فرضه شرعنا، ولكنها دعوة للإنصاف في معالجة قضايا المرأة، دعوة للتروي قبل إصدار أحكام الإدانة ضدها، دعوة للجرأة في معالجة هذا التفسخ الذي آلت إليه وضعيتها اليوم بعيدًا عن أي مزايدات أو انفعالات عاطفية.

للمرأة نصيب في هذا التردّي– هذا أكيد–، ولكن للرجل أيضًا دور كبير لتخاذله عن أداء دوره الريادي، لتقاعسه عن القوامة التي فضله الله بها، لاستمتاعه بهذا التفسخ وتشجيعه له ردحًا من الزمن.

صرختي أيضًا لك أختي الأنثى، كوني في مستوى المسؤولية الربانية، واقطعي دابر كل فتنة أنت سبب لها، وأقبلي على تنمية فكرك وتمتين علاقتك بمن برأك فهو الملاذ الآمن، والموئل الصادق لكِ في هذه الحياة.

وإليك أهدي هذه الأبيات الرائعة للشاعر الفذّ عبد الرحمن العشماوي:

أختاهُ، أختاهُ يا خنساءَ أمّتنا... لا تُصبحي سلعة للبائع الشّاري

قفي على قمّة الإسلام شامخة... مرفوعة الرأس في عزمٍ وإصرار



الفكاهة والسخرية
في أدب ربيع السملالي

الإنسان بجِبِلَّته وطبيعة خِلقته كائنٌ بديع، امتزجت فيه جملة من التناقضات: فبَيْن جِدِّه وهزله، وضحكه وبكائه، وحزنه وفرحه، وحِنكته وسذاجته، تتلوَّن نفسُه البشرية لتعَبِّر كلَّ حينٍ عن ذاتها وذوات مَن حولها، ولأن الأدب مرآة عاكسة لهذه النفس؛ فقد تعدَّدَت مشاربه وتنوعت ألوانه، حيث عرَف التاريخ الأدبي الإنساني فنونًا أدبية مختلفة، كانت خير معبِّر عن أحوال الناس في حِلِّها وتَرْحالها، وسُموها ودناءتها، ومن بينها الأدب الفكاهي.

ولعلَّ القارئ يقول متهكِّمًا: ما لَنا وللفكاهة في عصرٍ بلغ فيه النَّزْفُ مداه؟! وأنَّى للقلوب أن تبتسم وقد ألقت غيومُ القهر والظلم بظلالها علينا، وأبَتْ إلا أن تُلازم ديارنا؟!

ولعلَّ هذا الموقف ليس من بِدع القول؛ لأن إنكار هذا اللون من الفنِّ كان دَيْدن البعض قديمًا وحديثًا، حتى عدَّه "لامارتين" ضربًا من ضروب التهريج، فقال: "إن شعبًا جادًّا لا يؤسِّس شعره على الهزل، والجديةُ في كل شيء جزءٌ من الجمال، والإنسانية ليست ضربًا من التهريج"- "الأدب

الفكاهي"؛ للدكتور عبدالعزيز شرف، ص 14

لكن المآسي الإنسانية ما بَرِحَتْ تَتناسل عبر التاريخ، ورغم ذلك ما فتئ الأدب يُمتِّع النفوس بما يخطه أرباب البيان بين الحين والآخر من لطائف وبدائعَ تنتزع البسمة من بين ركام الأحزان، وترسم الفرحة ولو للحظاتٍ على ثَغْر الشِّفاه الأسيفة، وما أجمل قول أبي الفتح البُستي:

أفِدْ طبعَك المكدودَ بالجِدِّ راحةً … يُجَمُّ وعَلِّلْه بشيءٍ من المَــزْحِ

ولكِنْ إذا أعطيتَه المزْحَ فلْيَكُن … بمقدارِ ما تُعطي الطَّعامَ من المِلْحِ

فمِلْح الأدب الإنساني تلك الفكاهة الهادفة التي يخطُّ سطورَها الكاتبُ المبدع بقدَرٍ، بعيدًا عن الإسفاف والتهريج، بل ينثر مستملَحاته؛ لتطيب بها قلوب القراء، وتتحرر مؤقتًا من أحزانها، وتتطهر مما يكدِّر صفوها؛ يقول الدكتور عبدالعزيز شرف في كتابه "الأدب الفكاهي" ص15:"الأدب الفكاهي يقوم بوظيفة تطهيرية؛ حيث يُزيل من النفس أدران الهمِّ والقلق، واليأس والحقد، والتشاؤم والإحباط".

وحاجة المرء إلى الفكاهة والمرح أمرٌ لا يجادل فيه سَويُّ الشخصية لبيبُ الفكر؛ فالضحك أحد أسرار الخِلقة الإلهية في النفس البشرية، وكما أودَع الله فينا خاصية البكاء، جعل مقابلها وهو الضحك، فقال سبحانه: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** ﴾ (النجم: 43)، بل إنَّ الدراسات قديمًا وحديثًا

أكَّدَت أن للضحك آثارًا نفسية عديدة؛ يقول أبو حيان التوحيدي: "إياك أن تَعافَ سماع هذه الأشياء المضروبة بالهَزْل، الجاريةِ على السُّخف؛ فإنك لو أضربتَ عنها جُملةً لنَقُص فَهمُك وتبلَّد طبعُك، واجعَل الاسترسال بها ذَريعةً إلى إحماضك، والانبساطَ فيها سُلَّمًا إلى جِدِّك؛ فإنك ما لم تُذِقْ نفسك فَرح الهزل كَرَبها غمُّ الجدِّ، وقد طُبِعَت في أصل تركيبها على الترجيح بين الأمور المتفاوتة، فلا تَحمِلْ في شيء من الأشياء عليها، فتَكونَ في ذلك مُسيئًا إليها."- "الأدب الفكاهي" ص 15

ولهذا نجد المعنى اللُّغويَّ للفكاهة يكاد يُلامس هذا المعنى من التلطُّف والإمتاع، والضحك والمزاح؛ فقد جاء في لسان العرب تحت مادة "فكه" ما يلي: "والفُكاهة بالضَّم: المزاح، وفاكهتُ: مازحت، وتفَكَّهتُ بالشيء: تمتعتُ به"، "والمزاح: الدعابة. والْمُزَّح من الرجال: الخارجون من طبع الثقلاء، المتميِّزون من طبع البغضاء".

وحين نتحدث عن الفكاهة لا نجد مَناصًا من الحديث عن السخرية؛ إذ قيل في المقارنة بينهما الشيء الكثير، وغالب القول: إن السخرية في معناها اللغوي تأتي بمعنى الاستهزاء؛ يقال: "سخر منه وبه سخرًا: هَزِئ به، وقال الأخفشُ: سَخرتُ منه وسخرتُ به، وضحكتُ منه وضحكت به، وهَزئتُ منه وهزئتُ به"؛ لهذا "تَلتقي الفكاهة والسخرية بالضحك على المستوى الأفقي، والالتقاء على اعتبار الضحك أصلًا، أو بالأحرى قاسمًا

مشتركًا يجمع الفكاهة والسخرية"- من كتاب "الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبُّود" ص 9

ويقول الدكتور وئام محمد أنس في كتاب "الفكاهة والسخرية في الشعر المصري":" الفكاهة والسخرية فنَّانان متَّحدان متآلفان ومتلازمان، لا غناء لأحدهما عن الآخر، عدا أن السخرية تأتي أحيانًا غير مضحكة، تعوِّل على النقد والإيلام وحدَهما، وتدع التفكُّه جانبًا، وكذلك يندُر أن تأتي الفكاهة خاليةً من السخرية".

وقد بزغ فجرُ الفكاهة والسخرية في الأدب العربي منذ القرون الأولى، إلا أنه بلغ ذروته مع الجاحظ وأدبياته الساخرة؛ سواء مع "البخلاء" أو في "رسالة التدوير والتربيع".

وفي عصرنا يشير البنان في هذا المقام إلى أديب عُرف ببساطة أسلوبه وبُعده عن التكلف، وهو الأديب الأريب "إبراهيم المازني"؛ الذي اتضحَت معالم الفكاهة في شخصيته في كثير من مقالاته؛ سواء في "قبض الريح"، أو "صندوق الدنيا"، أو في مجموعته القصصية "في الطريق".

وقد حَذا بعضُ الأدباء الشباب حذْوَ هؤلاء الأماجد؛ أمثال الأديب المغربي (ربيع السملالي)؛ الذي يغلب على الكثير من أدبه الجِدُّ والصرامة؛ بحُكم تخصصه في الحديث عن الكتب والقراءة، وسعيه لشحذ الهمم؛ لتنمية هذه الملكة عند الشباب، لكن بين الحين والآخر تجد

له شَذراتٍ مَرِحةً تنتزع منك البسمةَ قسرًا وأنت تُطالعها. والغالب على فكاهياته نظرتُه الساخرة للظواهر الاجتماعية والثقافية، والسياسية والدينية؛ إذ تَستشعِر بين ثنايا تلك الابتسامات مَرارة يتَفطَّر من كمَدِها قلبُه، ومعه قلبُ كل غَيور على قيم المجتمع.

انظر- رعاك الله- إلى هذا الموقف الذي ساقه في إصداره الأول "أفكار على ضفاف الانكسار" ص 38: "أُنموذج من نماذج الأميَّة الدينية: في أحد البرامج اعترضَت مذيعةٌ رجلًا في عُرض الطريق؛ لتأخذ رأيه في مسألة، فتكلَّم قليلًا ثم قال: إنَّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا"! فما كان من صاحبتِنا المذيعة إلا أن قالت له: صدق الله العظيم!

لو كان العلَّامة ابن الجوزي حيًّا لذكَر هذه (المصيبة) في كتابه الرائع: "أخبار الحمقى والمغفلين!".

أليست بسمةً ممزوجة بمَرارة من عينٍ ناقدة، ترى الجهل الدينيَّ استفحل في مجتمعنا، حتى بِتْنا لا نميز كلام الخالق من كلام المخلوق؟!

وهل تُراك تضحك مِلءَ فيك أم تتميز من الغيظ وأنت تقرأ هذا الموقف: "سألتُ صديقة على "الفيس بوك": هل تَعرفين مَن هو ابن تيميَّة الذي تَطعنين فيه؟ فقالت: نعم، هو اسم حيٍّ شعبي من الأحياء القديمة بمراكش"!- "أفكار على ضفاف الانكسار" ص 105

وانظر إلى حال هذا الْمُصَحِّف الذي لا يميز بين "الْمُحْدِث" و"المحَدِّث": "قرأتُ في بعض كتب الشَّيخ المُنجد قديمًا: أنَّ بعضَ المُتعالِمِين تصدَّر للتَّدريس قبل الأوان، فأراد أن يَقرأ مرَّة في حَلْقة من حلقات العلم من كتابٍ يَنظرُ فيه: لا يجوزُ للمُحْدِثِ مسُّ المُصحف، فقرأها هكذا: لا يجوز للمُحَدِّثِ مسُّ المصحف! فقال له طالب ذكيٌّ: والمُفَسِّر يا شيخ؟! فأجابه بكلِّ ثِقَة: المُفسِّر مِن باب أَولى!

قال ربيعٌ: وهذا له مِن الجهل والغباء ما تُشَدُّ إليه الرِّحال؛ وتُضرب في سبيله أكبادُ الإبل، لا للأخذ عنه والتَّتلمُذ له، لكن لهَجوِه يقول القائل:

وكنتُ أرى زيدًا كما قيل سيِّدًا إذا إنَّه عَبْدُ القفا واللَّهازِم!

إنه الألم حين تمتلئ به النَّفس، فلا يجد متنفَّسًا له غير البسمة، وقديمًا قيل في المثل الشعبي المغربي: "كَثْرة الهَمّْ كَضَّحَّك"

كما لامسَ بنظرته الثاقبة- رغم حداثة سنِّه- بعض القضايا الاجتماعية؛ كحال نساء اليوم اللواتي يَحرِصن كل الحرص على التجمُّل والتزين خارجَ البيت، في حين يُهمِلن ذلك أمام بُعولتهن، فيقول ساخرًا: "تَخرجُ إلى الشَّارع بكاملِ زينتها وسُفورِها وتهتُّكِها، وعطورُها تُنادي على الرِّجال: هِيتَ لك! حتَّى إذا عادتْ إلى بيت زوجها (الغلبان) ألقَتْ عصا التَّجوال، ونزعَتْ عنها فِتنتَها؛ لتعودَ حليمَة إلى ملابسها القديمة، المُنتنةِ برائحة الثُّوم

والبصل والعرق وبولِ رضيعها... استعدادًا للنَّوم كما تنامُ الأنعام! وصدقَ من قال: تكون في البيت مثل (السيكليس)، وفي الشارع كأنَّه يومُ زفافها، ما أكثرهن! لا كثَّرَهن الله".

"و(السِّيكْلِيسْ) مصطلح مغربي، يُطلَق على العامل الذي يقوم بإصلاح الدَّرَّاجات العادية والنارية، فتجد ثيابه دومًا ملطَّخة بزيوت المُحرِّكات، وفي ذلك إظهارٌ لحالة الإهمال التي تكون عليها الكثيرُ من الزوجات في بيوتهن".

ولأن عصرنا عصرُ مواقع التواصل الاجتماعي، فإن احتكاك ربيع السملالي بهذا الفضاء الافتراضي جعَله يقتَنِص الكثير من المواقف المضحكة والساخرة، فيَنثرها بين الحين والآخر على صفحاته وبين تغريداته، لكن الملاحَظ تركيزُه على تاء التأنيث؛ كأداةٍ للفكاهة أحيانًا، والسخرية أحيانًا أخرى، فيقول مُمازحًا: "عدتُ من السَّفر متعبًا مَكدودًا، ففتحت الجهازَ بعدما استرحتُ قليلًا لألقي نظرةً عابرة على هذا العالَم الأزرق "فيس بوك"، فكان حظُّ عينيَّ أن تصطدما بمنشورٍ لصبيَّة تُغرِّد خارج السِّرب قائلة: سألبسُ القصير، وأشربُ العصير، وأجلسُ على الحصير"!

ويقول ساخرًا وقد بلغ سَيلُ التَّفاهة الزُّبَى، واستأنسَ القوم بما سفُل وانحطَّ من المنشورات: "تافهة فيسبوكية لها آلافُ المتابعين، كتبَت مرَّة: "أنا حامل!" فعلَّق عليها المئات، وأعجب بها الملايين، وقام بمشاركتها العشرات! فهالَني الأمر بعدما أخبرَني أحدُ الأصدقاء، فكتبتُ لها: يُعجَب

بحملِك كلُّ هذا الكم الهائل من النَّاس ويُباركونه، وكأنَّكِ حامل بصلاح الدِّين الأيُّوبي، الذي سيُحرِّر الأمَّةَ من هذا الذُّل الذي فيه ترزحُ!".

وقد أزاح هذا الفضاءُ الافتراضي السِّتار عن كثير من الجهَّال الذين ارتدَوا لَبوس العلم، فكشفَت كتاباتُهم عَوراتهم العلميةَ والفكرية، لهذا لم يَسْلم أمثالُ هؤلاء من قلَم السملالي، فتراه يحرص على اقتناص مثل هذه النوادر قائلًا ذات مرة: "كتبَ بعض الأصدقاء على حائطه "الفيسبوكي" قبل أيام: اقتَرِحوا عليَّ كتابٌ! هكذا؛ برَفعِ (كتاب) الذي مِن حقِّه النَّصب على المفعوليَّة!

فقلتُ له ناصحًا: عليك بكتاب "النَّحو الواضح" لعلي الجارم! فقال: هل هي روايةٌ أخي الكريم؟ فقلتُ له بعدما تأكَّدتُ أنَّه لم يَفهم المغزى: لا، بل هو كتاب يبحثُ في فنون الطَّبخ!".

ولأن السرقات الأدبية والعلمية صارت أكثرَ ذُيوعًا بسبب هذه الفضاءات الافتراضية؛ فقد عرَض ربيع السملالي لهذا الأمر الذي عانى منه كثيرًا، فلم يجد بدًّا من عرض المشكل في قالب هزلي ساخر؛ فقال: "مِن أغرب السَّرقات الأدبية التي رأيتُ في هذا الفضاء الأزرق، حينَ كتبتُ عن مرَضي وتعبي في بداية الصَّيف الفائت؛ وجدتُ شابًّا في العشرينيات يتألَّم بكلماتي، ويَنوح بأسلوبي، ويضَع يده على رأسه بقلمي، طالبًا الدُّعاء من أصدقائه، فتحسَّستُ مَلامحي، ونظرتُ في مرآتي، وخشيتُ على نفسي

أن تكون روحي قد حلَّت في جسده، فتَنتصِر نظريةُ ابن عربيٍّ، وابنِ سبعين، وابن الفارض... وبعدما تأكَّدتُ أنَّ هذه النَّظرية الفاسدةَ غيرُ صحيحة، ولا يمكن أن تكون صحيحة- اكتفيتُ بتعليق يسيرٍ مفاده: لا شفاك الله إن لم تكن "أنا"! ثمَّ انصرفتُ ورائحةُ "البلوك" تُشيِّعني!".

وغنيٌّ عن البيانِ أنَّ الشهرة اليوم غدَت أهمَّ من الإبداع عند الكثير من حمَلة الأقلام ممَّن ألْفَوْا أنفسهم في زمرة الأدباء سهوًا، وقد فتحَت مواقعُ التواصل البابَ على مِصراعيه أمام كثير من أدعياء الأدب، حتى أضحى مَن يَنْظم بيتًا أو بيتين، أو يُدبِّج سطرًا أو سطرين، يَصول ويجول في مَعارض الكتاب حاملًا "تُحفته الفريدة" وكأنَّه فتَح عكَّا!

وهذا ما عبَّر عنه ربيع السملالي في هذه القصة القصيرة جدًّا بأسلوبه المقتضب السَّاحر: "صدَر له أوَّلُ ديوان شعري في عشر ورقات، ثمَّ كتب في صفحته الفيسبوكية لمتابعيه الكثيرين: غدًا أكون في المعرض الدَّولي للكتاب لمن يُريد رؤية فضيلتي، والتقاط صورة مع حضرة سموِّي! وفي الغد لم يَلتفِت إليه أحد، فأخذ الدِّيوانَ وأعاد قراءته بعين فاحصة!".

وبعيدًا عن هذه اللمسة الساخرة نجد ضربًا آخرَ من ضروب الفكاهة في كتابات السملالي، وهي الفكاهة التي تقصد إلى الإمتاع والإضحاك المحض، من خلال مَواقِفَ عاشها وتَعايش معها، كما هو الحال في نَوادره مع شيخه "محمد بلبصير"، فيقول في نادرته الأولى: "من النَّوادر التي

حكاها لي الشَّيخ محمد بن إدريس بلبصير الضَّرير حينَ كنتُ قارئَه وقائِدَه، قال: عندما كنتُ طالبًا بجامع القرويين بفاس كانَ يسكن بالقرب من البيت الذي أقيم فيه مع الطَّلبة فقيهٌ له مكتبة فوق السُّطوح، يظَلُّ فيها الليلَ كلَّه يقرأ ويبحث، ويتدبَّر ويستنبط، وكان إذا فتَح الله عليه في مسألة من المسائل، يأخذُ دُفًّا كانَ يعلِّقه في حائطِ غرفته، ويبدأ في الضَّرب عليه بسعادة وفرح، وكان الناس إذا سمعوا ضرب الدُّف، يقولون: ها هو الشيخُ قد فَهِم!".

ويقول في النادرة الثانية مع شيخه: "في رمضان الفائت جلستُ إلى الشَّيخ الأديب محمد بن إدريس بلبصير في بيته بعد صلاة التَّراويح، وبعد حوار جميل ونافع كالعادة، ذكرتُ له أنَّني أبحث عن جهاز "كمبيوتر" ثابت؛ لأنَّ المحمول يرهقني في الكتابة! فقال لي ضاحكا: إيَّاك أن تقتنيَه مستعمَلًا! فهذه الأجهزة المستعملة كبعض النِّساء المتزوجات، لا تَظهر عيوبها إلَّا بعد مرور الأيَّام وتعاقب اللَّيالي".

والأجمل من ذلك سردُه الجميل لِحدَثٍ طفولي ظلَّ عالقًا في ذهنه، حين ذهب مرة إلى حمَّام عمومي بحيِّه، فأبدع في وصف تلك النظرة الطفولية لحدثٍ عادي، لكنه بأسلوبِ حكايتِه جعَله حدَثًا كوميديًّا مضحكًا، فيقول: "ذهبتُ مرة في صِغري لحمام الحيِّ؛ قصد الاستحمام والتَّخلُّص من الأوساخ التي علقَت بجسدي طيلة الأسبوع، وعندما نزعت ملابسي ودخلتُ للغرفة الساخنة لفتَ انتباهي رجلٌ كبير الشأن في

مدينتي، له مرتبةُ قائدٍ ممتاز! وقفتُ أملأ عينيَّ من هذا المشهد الغريب؛ إذ لم أكن أتصوَّر- لحداثة سِنِّي وجهلي البسيط- أن يكون هذا الرجل الذي يُشار إليه بالبنان متَّسِخًا أيضًا، ويحتاج للحمام كما يحتاجه الفقراء والمساكينُ من أمثالي!

اتخذتُ لي مكانًا بقربه، مُسترِقًا النظر إلى تفاصيل جسده الذي يَفْركه بِخِرْقةٍ خشنةٍ؛ لاستخراج فسائل الأوساخ المتمردة! محاوِلًا مقارنةَ جسدي بجسده، فلم أجده يختلف عني بشيء، اللهم إلا ذلك البطن المنتفخ الذي يحجبُ عنه جزءَه الأسفل!

سئمت من رؤيته فأعرضتُ عنه، وأقبلتُ على جسدي النحيل أفركه بحماس، حتى نظفته جيِّدًا حسب استطاعتي، ثم انصرفتُ إلى حال سبيلي ولساني يردِّد: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث"- "أفكار على ضفاف الانكسار"، ص 35 – 36

وهذه مستملحة سملالية أخيرة أسوقها مسكًا للختام: "قبلَ أيَّام أرسلَتْ لي فتاةٌ طلبَ صداقة، وقبل أن أُضيفها زرت صفحتها- كعادتي؛ لكي أعرف توجُّه الفتاة وأخلاقَها من خلال ما تنشر- فقَبِلتُها... ثمَّ بعد يومين أرسلَت لي رسالة تقول فيها: ممكن أعرف مَن معي أخي؟ وما اسمك؟

فأجبتها: معَكِ عمرُو بن بحرٍ الجاحظ، واسمي محمَّد بن سلَّام الجُمَحي!".

هذه النماذج التي أدرَجتُها في عُجالة تكشف روحًا مرِحة خفيَّة عند ربيع السملالي، تكاد لا تظهر في الكثير من كتاباته؛ بسبب غلَبة الجدِّية والصرامة في إبداعاته، لكنها تَطفو بين الحين والآخر كلَّما كلَّ الذهن وتعب الفكر، وطلَب ترويحًا عن النفس، وسعى لكسر طوق الجدية الباعثِ أحيانًا على الملل والسأم.

إن الفكاهة التي تحمل بين طِيَّاتها رسالة إنسانية لَمِن أعظم الفنون الأدبية وأنبلها، أيًّا كان جنسها الأدبي؛ شعرًا، أو نثرًا، أو مسرحًا، أو غير ذلك، ومَن يتولى الكتابة فيها يُفترض فيه امتلاكُ براعةٍ في النقد لا تَخدِش الحياء، ولا تَسقط في فخ الهجاء المذموم، وروحًا مرحة لا يستثقلها القارئ وإلا مجَّ فكاهته وأنِف منها.

وحاجتنا اليوم إلى هذا الفن الأدبي حاجةٌ ماسَّة، في ظل الأزمات التي أثقلَت كاهلنا، والهموم التي نخَرَت أجسامَنا. نحتاج إلى هذه الفسحة الأدبية الهادفة التي تنتقد الواقعَ بلغةٍ سلسلة، بعيدةٍ عن العبث والتهريج.



الأسرة المسلمة
بين مطرقة الإعلام وسندان العولمة

حرص الإسلام على الدعوة إلى تأسيس الأسرة باعتبارها المحضن العقدي والتربوي الأول للفرد، بل وأكسب هذه الدعوة صبغة عظيمة حين أجزل الثواب لكل فرد من أفرادها إنْ هو قام بواجب المسؤولية كما ينبغي.

فاعتبر إنفاق الوالد على أهله وجها من أوجه البر والصدقة كما في الحديث الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: "إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها؛ كانت له صدقة". وعَدَّ برّ الوالدين بابًا من أبواب الدخول إلى الجنة، وقَرَنَ رضا الله برضاهما وسخطه بسخطهما، كما في الحديث الذي رواه ابن حِبّان في صحيحه:" رضا الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد"

فقيام كل فرد داخل الأسرة بالمسؤولية المناطة به واجب، وباب من أبواب الجهاد في سبيل الله، فقد ورد في "صحيح الترغيب والترهيب" أن رجلًا مرّ على النبي - ﷺ-، فأعجب الصحابة الكرام بجَلَدِه ونشاطه؛ فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهو في

سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان". فالأسرة إذًا باب من أبواب الطاعة وقربة من القربات لا ينبغي التهاون في أدائها.

وإلى جانب هذه الاعتبارات الدينية؛ هناك اعتبارات شتّى تربوية واجتماعية وكونية تُحتم على كل ذي لبّ أن يحافظ على هذا الكيان الاجتماعي، إذ إنشاء الأسرة ضمانٌ لاستمرارية النّسل البشري بشكل أنقى وأرقى، وتحقيق لسنة من سنن الله الكونية، وبه يتم إشباع مطالب الإنسان الروحية والجسدية بأسلوب شرعي وإنساني، وفيه حفظ للأنساب من الاختلاط، وحماية للمجتمع من كثير من الأمراض الجنسية.

ولِيقين أعداء الإسلام بأهمية الأسرة ودورها في الحفاظ على هذا الدين العظيم؛ فقد دأبوا على التخطيط للكيد لها وبعثرتها وتفكيك عُراها، والشعار الماركسي "اهدموا الأسرة" كان أساس حملاتهم الرعناء. وهم على يقين أن إفسادها إفساد للمجتمع، وهدمها هدم لكيان هذا المجتمع. وقد بلغوا مُناهم فَغَدت الأسرة خلية لتفريخ العاهات الاجتماعية، بدل أن تساهم في إنتاج عقول قادرة على تحمل المسؤولية.

ولعل أهم رياح الهدم التي تتعقب أسرنا المسلمة مِطرقة العولمة وسندان الإعلام؛ فرياح العولمة تسعى لإخضاع هذه الخلية الاجتماعية لنظام عالمي واحد، نظام يتغاضى عن خصوصيات البلدان الإسلامية

ومرجعيتها الدينية والتاريخية، ويفرض نموذجًا واحدًا من نسج البلدان الكبرى المهيمنة على العالم لضمان استمرارية نفوذها وسيطرتها على الدول- خاصة الدول الإسلامية- لاستنزاف ثرواتها.

ولِبسط هذا المخطط نهج الغرب سُبلًا عِدّة وآليات مختلفة لعولمة الأسرة وتغيير قيمها ومنهج حياتها ونظامها. فكان الإعلام أبرع سفير وأسرع بريد لقلب كثير من المفاهيم، عبر ما يبثّه من برامج بالقنوات الفضائية التي باتت تتناسل كخلايا سرطانية، والشبكة العنكبوتية التي بعثرت أوراق الكثير من الأسر.كما تمت الاستعانة بالقوى والقيادات السياسية المهيمنة على العالم خاصة بعد أحداث بُرجي أمريكا، وما تلاها من سياسات قلبت رأس العالم عقبًا. وغير خافٍ ما تقوم به الكثير من الجمعيات المشبوهة التي تتستر تحت ستار الدفاع عن حقوق الإنسان والنهوض بالمرأة وتحريرها والتي غالبًا ما تكون ذات أجندة غربية وتمويل أجنبي.

وقد أفرزت رياح العولمة قرارات خطيرة كان لها أبلغ الأثر على الأسرة وقيمها، وذلك من خلال السماح بخلق كيانات أسرية من غير الزواج، وإلباس أشكال الأسرة الأخرى لباس الشرعية، وفي هذا إشارة إلى شرعنة الزواج عند المثليين، وهذا ما أقرته مؤخرًا المحكمة العليا الأمريكية؛ حيث أصدرت حكمًا يقضي بحرية زواج شخصين من نفس الجنس، ووافق أوباما على هذا الحكم معلقًا بتفاهةٍ: "الحب انتصر لِتَوّه".

كما سعى المخرّبون إلى غرس أفكار بين الشباب للتّنفير من الزواج

المبكر، واعتباره انتهاكًا صريحًا لعرض الطفولة - كما زعموا-، وحضّوا الأزواج على تحديد النسل- وليس تنظيمه-، وأفسحوا في الدعوة إلى حرية العلاقة الجنسية المحرمة، والعُري، وحرية التصرف في الجسد دون ضوابط شرعية أو عرفية أو قانونية. ومن ثمّ دعوا إلى عدم تجريم الإجهاض والسماح به بداعي الحرية الشخصية. وكمْ راجت على الساحة تلك النقاشات الجوفاء التي تدعو لترسيخ المساواة المطلقة بين الجنسين بدعوى القضاء على كل أشكال التمييز والاضطهاد ضد المرأة، وجعلها مستقلة بذاتها غير تابعة لسلطة ولي أمر سواء كان أبًا أو أخًا أو زوجًا.

فنظام العولمة يسعى لتجريد الأسرة المسلمة من كثير من خصوصياتها، وجعلها تعيش وفق النظام الغربي منزوعة السلطة، متحررة التفكير، متحللة الأخلاق؛ لذا لا غرْو إن رأينا أُسرنا تعاني التفكك والتصدّع، والبوْن يتسع بين الآباء والأبناء، والجهل بأمور الدين يرخي بغيومه السوداء فوق بيوتنا، والمرأة تتخلى عن كثير من أدوارها باسم الحرية والتحرر، وتلك الدعاوى اللاعقلانية بالمساواة المطلقة بين الجنسين!

لماذا ارتفعت في مجتمعنا نسب الطلاق؟ لماذا استشرتْ زيجات النساء بدون حضور ولي الأمر؟ لماذا كثرت الأمهات العازبات؟ لماذا تخلى الرجل عن نخوته وغيرته وصار حَمَلًا وديعًا وهو يعرض زوجته وبناته دون حياء أمام الصالح والطالح؟ لماذا تشكو أسرنا جفاف الحنان

بين الزوجين من جهة وبين الآباء والأبناء من جهة أخرى؟ لماذا تفشّت فينا هذه الفوضى الجنسية والأخلاقية؟ لماذا تخلى الآباء عن مسؤولياتهم وأوكلوا مهام التربية للخادمات والمربيات؟ لماذا نُجرّم تعدد الزوجات ونتعامى عن الخليلات والعشيقات؟

إن عولمة الأسرة المسلمة جريمة في حقها، وفي حق المجتمع. ولا أخال مسلمًا غيورًا ترضيه هذه التغيرات الجذرية التي تجعل الأسر المسلمة تسلك مسلكًا ينْأى بها عن طريق الله وشرعه الحكيم.

أما الإعلام- والذي يعتبر آلية من آليات فرض هذا النظام- فلن نجازف إن قلنا إنه أضحى بشتّى صوره- خاصة السمعية البصرية- ذا تأثير عظيم على الأسرة نشأة وتطورًا، والمبلور الأساس للقيم الحياتية لكثير من الأفراد؛ لذا وَجب على المفكرين والتربويين وكل الغيورين أن يكثفوا جهودهم ويوجهوا اهتمامهم لتوجيه هذا الإعلام توجيهًا صائبًا يخدم الشأن العام للمجتمع من خلال العناية بخلايا تكوينه وهي الأسر.

ومما يؤسف له حاليًا أنّ الإعلام في مجمله مِعْول هدْم لكل قيم الأسرة، بسبب ما يبُثُّه من سموم تفتُّ في عضدها، وتنْخر في عظمها فَتُوهن قدراتها. بل إن الدراسات أكدت أن الإدمان على هذه الوسائل الإعلامية سبب مباشر في تنامي قيم العنف والإرهاب والتفسخ والانحلال الخلقي.

والبرامج التي تحضّ على التفاهة والسطحية هي التي أضحت لها الكلمة المسموعة، وهي التي تُطالع المواطن صباح مساء، فيتشرّبها ويقتدي بشخوصها وإنْ جانبوا الصواب وخالفوا صريح السنة والكتاب.

وفي اعتقادي البسيط لن تستطيع الأسرة المسلمة مجابهة كل هذه التحديات الخطيرة مالم تُعِدْ ترتيب بنائها على أسس سليمة تستقي قيمها ومبادئها من كتاب ربّها وسنة نبيها ﷺ.

وأول لَبِنة ينبغي الحرص عليها عند التشييد- والتي غفل عنها الكثير من الناس بسبب الطمع تارة والجهل تارة أخرى- هي حسن الانتقاء الذي ينْبني على الدين وحسن الخلق، لا المال والجمال والنسب فحسب، قال الرسول ﷺ:" تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظْفر بذات الدين تَرِبت يداك"- رواه البخاري-، وقال عليه الصلاة والسلام:" إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" رواه الترمذي.

ونُقل عن أبي الأسود الدؤلي أنه قال لِبَنِيه: قد أحسنتُ إليكم صغارًا وكبارًا، وقبل أن تولدوا. قالوا: وكيف أحسنتَ إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترتُ لكم من الأمهات من لا تُسبّون بها. فأول إحساني إليكم تخيّري لِمَاجدة الأعراق بادٍ عفافها!

وكما يُطلب الدين لحظة الاختيار، يجب أن يكون أيضًا منهج الحياة

المرتضى لكل أسرة مسلمة. فآفات أُسرنا اليوم أنها تعيش أميّة دينية فظيعة، وتتخبط في الحياة على غير هدى، ولا استقامة للأسرة المسلمة ما لم تقم على نهج ديني سليم يستقي مبادئه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. يقول الرافعي في "وحي القلم": "متى كان الدين بين كل زوج وزوجة، فمهما اختلفا وتدابرا، وتعقدت نفساهما، فإن كل عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقة حلّها، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، وهو اليسر، والمساهلة، والرحمة، والمغفرة، ولين القلب، وخشية الله، وهو العهد، والوفاء، والكرم، والمؤاخاة، والإنسانية، وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيقة".

كما ينبغي الوعي التام بمعنى "إنشاء أسرة"، فهي ليست ديكورًا اجتماعيًّا نُجمّلُ به حياتنا، ونستمتع من خلاله بزينة الحياة الدنيا، بل هي أمانة سيُسأل عنها العبد يوم القيامة، كما ورد في الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه:" إنّ الله سائلٌ كلّ راعٍ عمّا استرعاه، حفظ أم ضيّع– زاد في رواية– حتى يسأل الرجل عن أهل بيته". ومتى استحضر أفراد الأسرة ثقل هذه الأمانة؛ كانوا أحرص على التفاني في أدائها، مخافة حلول العقاب الربّاني حال التفريط فيها.

إن إصلاح الأسر وحمايتها من التيارات التي تحاول زعزعة كيانها

عمل يجب أن يسهم فيه الجميع أفرادًا وجماعات، وعلى الإعلام أن يتحمل مسؤوليته ويكفّ عن بثّ برامج تعتمد على الترفيه السمج والإثارة والميوعة والترويج لثقافة العنف والجنس. وعلينا إحياء مشروع القراءة في الأمة ومحاربة كل أشكال الجهل والأمية، وربط الناس بخالقهم ومرجعيتهم الثابتة في كتاب الله وصحيح سنة رسوله ﷺ، وإصلاح التعليم إصلاحًا يستجيب لكل هذه المتغيرات والطموحات.

والله من وراء القصد.



ماذا قدمّنا لِدينـنا؟

قرأتُ يومًا مقالة لكاتبة يهودية يَمَنية تستنكر على المسلمين دعوتهم لغيرهم للدخول في الإسلام، معلّلة ذلك بأن المسلمين اليوم ليس لهم ما يقدمونه للعالم حتى يَقبلوا بالدخول في دينهم، فهم يسفكون دماء بعضهم البعض بلا رحمة، وقد تفرقوا طرائق قددًا، كلٌّ منهم يكفِّر الآخر، وكل فرقة تدّعي لنفسها النجاة وتحكم على الأخرى بدخول النار، فمن يرغب في الدخول للإسلام سيحتار مَنْ مِنَ الفرق سيختار!!

كما أن العالم الإسلامي يعيش حالة من انعدام الأخلاق وسيادة الظلم والاستبداد، وغلَبة كل قيم الغش والفساد واللامبالاة بالمصالح العامة، وهذه أسباب كافية لجعل الآخر ينفر منهم ومن دينهم، واستطردت قائلة بأن الخلل ليس في الدين بدليل أن الرسول ﷺ كان له جار يهودي أسلم بفضل أخلاق النبي- ﷺ- وقبل أن يقرأ القرآن أو يطلع عليه.

صراحة ودون أدنى مواربة وجدتها صادقة في قولها.. فعلًا ماذا قدمنا نحن للعالم اليوم حتى نحبّب لهم هذا الدين؟ هل كنا خير سفراء لديننا؟ أم أننا تركنا الثغور التي استأمننا عليها ربنا فأُوتي الدين من قِبَلنا؟

إن الإسلام لم يلِج قلوب النّاس إلا بتعاليمه السمحة التي تنسجم مع الفطر السليمة التّواقة لكلّ جميل في الفكر والسلوك والمعاملة. ولهذا قال ربّنا لرسوله الحبيب- ﷺ-: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾، فبالرحمة وحسن الخلق والرفق بهم التفوا حولك، ولو كنت خلاف ذلك ما حذَا حذوك أحد.

حين شدَّد الظلمُ وطأته على الضعفاء وجدوا في عدل الإسلام متنفَّسًا فاعتصموا به، وحين استباحت الحروب الهمجية دماء الشيوخ والأطفال والشباب وجد الناس في عصمة الإسلام للدماء ملاذًا آمنًا فلاذوا بحماه، وحين استحلّ الأقوياء أموال الضعفاء وكثر السلب والنّهب، وجد الناس في حدود الإسلام خير حماية لأموالهم.

ماذا يفعل من يُقبل على الرسول- ﷺ- كارهًا وناقمًا فيجابهه الرسول الكريم بالقول الحسن إلا أن يعتنق هذا الدين! وماذا يفعل من يقرأ سيرة الرسول- ﷺ- وهو يقول للأعرابي الذي تبوّل بالمسجد: "إن المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن"؛ إلا أن يقف وقفة احترام لهذا النبي الكريم الذي يجابِه سلوكًا مقيتًا من أعرابي جاهل بهذا الأدب الجمّ!

وماذا يفعل من يقرأ تلك النماذج المشرقة من سيرة الرسول ﷺ وصحبه الكرام الذين كانوا مدارس متحركة تعلم الناس فنّ التعامل في كل

مجالات الحياة إلا أن يهُبَّ بكامل جوارحه مقبلًا على هذا الدين المعلِّم.

وكُتب التاريخ تذكر لنا أن الإسلام إنما انتشر في دول آسيا بفضل أخلاق التجار العرب، وليس بسيوفهم، أحسنَ القومُ الاختلاط بالناس وتعاملوا معهم وفق شرع الله، فكان أنْ لاَمَس ذلك شغاف قلوبهم، وسألوا فعلموا أن دينهم مَن أدَّبهم بهذه الخِلال؛ فدخلوا فيه أفواجًا.

ما الذي جعل مئات الأشخاص يعتنقون الإسلام أو يتوبون عن غيّهم على يدِ عالم واحد كابن الجوزي سوى تلك الصورة المشرقة التي لمحوها في سيرته من جِدٍّ واجتهاد ورحمة وأُلفة وسمْتٍ حسن، يقول رحمة الله عليه في كتابه الماتع "صيد الخاطر": "وقد أسلم على يدي نحو مئتين من أهل الذّمة، ولقد تاب في مجلسي أكثر من مئة ألف". فأين نحن من أمثال هؤلاء البررة؟ ماذا قدمنا لديننا حتى نحبّبه لغيرنا؟

أخشى ما نخشاه أن نكون السبب في نفور غير المسلمين من الإسلام، حتى ذُكر أن أحدهم قال بعد إسلامه وزيارته للدول الإسلامية: "الحمد لله أنني أسلمت قبل أن أرى المسلمين".

وأخشى أن نكون فعلًا ظلَمة كما قالت تلك المرأة النَّصرانيَّة الَّتي حضرت أحد المؤتمرات الَّتي أقيمت للتَّعريف بالدِّين الإسلامي: "لئن كان ما ذكرتموه عن دينكم صحيحًا إنكم لظالمون! فقيل لها: ولماذا ؟ قالت: إنَّكم لم تعملوا على نشره بين النَّاس والدَّعوة إليه!!".

نحن فعلًا ظلمنا ديننا لأننا لم نحترم شعائره بيننا ولم نسعَ لتبليغه لغيرنا كما كُلِّفنا بذلك، بل إن أجيال اليوم استهانت بهذا الدين وأصبحت أكثر جرأة على نقض تعاليمه. والكثير منا اكتفى بميراث الإسلام دون أن يكلف نفسه عناء البحث في هذا الميراث أو التنقيب في كنوزه، استحْللنا الحرام واسْتهنا بشرع الله وقدّسنا غير المقدس، ووطئنا بأقدامنا كل مقدس، دماؤنا صارت رخيصة، أخلاقنا أضحت في الحضيض مع بعضنا قبل غيرنا، المناصب عندنا صارت مغنمًا والأنانية صارت شعارًا ونشر الدين أو الدفاع عنه صار ردّ فعل فقط ضد أي هجمة على معتقد إسلامي.

حين يأتي السياح لزيارة بلدانا ماذا نقدم لهم من أمور تخالف عاداتهم: فالخمور في المتناول والدعارة مهيأة بالقانون، بل نقلدهم في أبسط أمور العيش من ملبس ومأكل وغير ذلك.

أما الغش والنصب فقد أضحى شعارَ كل تاجر يجود عليه الزمن بسائح مهووس بالتراث العربي. ليست عندنا نخوة ولا كرامة في تعاملنا معهم، فطبيعي أن يحتقروننا ويُشعروننا بالدونية ويرغبون عن ديننا لأننا أعطيناهم انطباعًا سيئًا عن هذا الدين الذي ظُلم بانتسابنا إليه.

صحيح أنّ الإقبال على اعتناق الإسلام في تزايد مستمر، ولكن هذا في الغالب- بعد فضل الله- نتيجة جهود فردية من علماء أو أفراد عاديين

لهم غيرة على دينهم، كما هو حال الداعية الكويتي والطبيب عبد الرحيم بن حمود سميط- رحمه الله- الذي كان آية من آيات التضحية العظيمة في عصرنا من أجل رفعة هذا الدين ونشره بين الناس، حيث أسلم على يديه 11 مليون شخص في إفريقيا بمعدل 972 شخص يوميًّا. وقصص إسلام الكثير من غير المسلمين تؤكد أن السلوكيات الفردية لبعض المسلمين هي الحافز لذلك، لكن ماذا لو جعلنا العالم ينبهر بالإسلام حين يجده بيننا في مدارسنا ومعاملنا وشوارعنا وإعلامنا وثقافتنا وفي كل ركن من أركان دولنا.. أكيد الأمر سيكون مختلفًا.

ليتنا نعي أن مهمة التبليغ ليست منوطة بفئة دون أخرى، ليتنا نخلعُ عنّا جُبَّة الأنانية والفردانية ونعيش لديننا ولأداء مهمة الاستخلاف السليم الذي يريده الله من عباده الذين اصطفاهم لحمل راية هذا الدين، ليتنا نتعب لأجل هذا الدين كما تعب لأجله رسل الله وأصفياؤه. فأين نحن وما كابده هؤلاء الأتقياء؟! يقول ابن قيم الجوزية- رحمه الله- في كتابه "الفوائد": "أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبِيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضرّ أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ".

فهل بلغ بنا الجهد ما بلغه بهؤلاء الأطهار، أم أن كل جهدنا لهاثنا خلف لقمة عيش أو تغذية شهوة أو اقتفاء أثر نزوة؟

نسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا، ويجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين.

﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الممتحنة:5).



وتستمر الحياة !!

حين خلق الله تعالى آدم، شاء سبحانه أن يُؤنس وحشته وهو في الجنة بخلق حواء من جنسه، كدلالة واضحة أن الجنس الواحد لا يستطيع العيش منفردًا، أو بين جماعة من بني جنسه؛ لأن ذلك يُشعره بالوحشة وإن أحاطت به خيرات الجنّة. لهذا كان الزواج سنة كونية وأمرًا فطريًّا ليس عند الإنسان فحسب، بل سمة كل كائن حيّ.

لكن من يتابع وقائع زمننا الذي انفلتت فيه عرى كثير من الخصال الفطرية في الإنسان، يلاحظ عزوفًا بيّنًا عن هذه السنة الكونية، وميلًا للعيش المتحرر من كل التبعات التي يستلزمها هذا الارتباط الطبيعي. والذي ينبغي أن نفطن إليه أن هذا العزوف سيّان بين الذكور والإناث، تمخّضَ عنه ارتفاع مهول في نسبة العنوسة بوطننا العربي، تجاوزت الملايين بالكثير من الدول العربية.

وتكاد أسباب العزوف تتشابه بين الدول العربية، وفي مقدمتها تعسير سبل الزواج من الناحية المادية، بسبب تكلفته المرتفعة بدءًا بالمهر ومرورًا بحفل الزفاف وانتهاء بالسكن، فلا يستطيع الشاب، وأنياب البطالة تنهشه، أن يُقْدم على الزواج فيتقاعس إلى حين. كيف لا وقد بِتنا نحيا في مجتمعات غلبتها شهوة المادة وذابت روحانياتها، فصار الحلال صعب المنال، والحرام متاحًا على كل الأحوال!

وتُطل الأسباب النفسية والاجتماعية فترخي بظلالها على الظاهرة، إذ إن الكثير من الشباب اليوم يتملكه الخوف من الإقدام على الزواج حذَر الفشل، خصوصًا بعد تنامي ظاهرة الطلاق بشكل مخيف، وما يتبع ذلك من التزامات مادية مرهقة: فالزواج مكلف.. والطلاق مكلف.. لذا فالتردد يصبح سمةً للكثير من الشباب.

كما أن انعدام الثقة بين الجنسين يعتبر سببًا مهمًّا من أسباب هذا العزوف، فالرجال يرددون "ذهب زمن النساء العفيفات، وصارت كل فتاة متهمة حتى تثبت براءتها"، والنساء يردّدن المعزوفة التشاؤمية نفسها "أين هم الرجال الخلّص الأوفياء؟".

وبين هؤلاء وهؤلاء يقف صنف آخر أقعده البحث عن الكفء سواء من الناحية الثقافية أو الاجتماعية، وذلك بسبب غلبة بعض العادات العقيمة في المجتمعات العربية خصوصًا القبلية، وكذا اقتحام المرأة بقوة سوق الشغل وتفوقها في الدراسة؛ حيث أكسبها الاستقلال المادي والنبوغ الثقافي نوعًا من الثقة بنفسها وجعلها أكثر صرامة في اختيار شريك الحياة، ولهذا صار ديدن الكثيرات "ليس مهمًّا متى نتزوج.. بل من نتزوج، الكثير يعتقدون أن القطار فات، فليذهب القطار إن شاء الله إذا كان الثمن الذهاب إلى وجهة لا نريدها".

لكن ما يحزّ في نفس هذه الفئة الاجتماعية- رغم تعايشها مع وضعها ورضاها بقدرها- نظرة المجتمع السلبية إلى المرأة التي لم توفق في الزواج،

فترى نظرات الألم والحسرة تتعقبها، والألسن تلوك عبارات شفقة اهترأت عبر الزمن، تستشعر المسكينة كأنّها أضحت وصمة بؤس على الجبين، أو كائنًا أضاع بوصلة الحياة لأنه لم يجد رفيق درب يؤنس وحدته ويبدّد وحشته. ولا أدري إلى متى سيظل المجتمع ينظر للفتاة التي لم تتزوج نظرة إشفاق وكأنّ بها عاهة تخرم مروءتها أو تخدش إنسانيتها!!

بخلاف الرجل فالسنوات- في نظرهم- لا تزيده إلا نضجًا، والحياة تبقى مشرعة أمامه وإن بلغ عقده الخامس أو السادس، فلا شيء يعيبه، ولا تعقيب على عنوسته.

ولئن كانت العنوسة اضطرارًا عند البعض، بسبب ما تمليه الظروف التي ذكرناها آنفًا، فإنها عند البعض الآخر تكون اختيارًا تفرضه قناعات شخصية، كحال من آثروا تكريس حياتهم لطلب العلم ونفع الأمة، لأنهم رأوا أن الزواج بتبِعاته ومسؤولياته الجسام سيعيق مسيرتهم العلمية، فهم كما قال العلامة عبدالفتاح أبو غدة "انصرفوا عن الزواج إلى العزوبة، وجهوا طاقتهم لخدمة الإسلام والعلم والدين، وآثروا بها خدمة الشريعة والمسلمين، فقد آثرونا على متع أنفسهم، وعطش أجسامهم، وراحة أبدانهم، رضوان الله عليهم"- "العلماء العُزّاب الذين آثروا العلم على الزواج" ص 21، ومثل هذه الاختيارات ليست بالأمر الهيّن على من اختار السير في دروب العلم طويلة الأمد، بل هي رحلة مكابدة ومشقة لا

يستعذب طريقها إلا من آتاه الله صدقًا وإخلاصًا كبيرين في سبيل خدمة الدين ونشر العلم، يقول الشيخ أبو غدة- رحمه الله-: "ومن السهل أن ندرك أن التبتّل والانقطاع عن الزواج اختيارًا: شدة من أكبر الشدائد في حياة الإنسان العالم، يفقد بها الأنس الروحي، والسكون النفسي، ويتحمل معها مشاق العزوبة في شؤون الطعام والشراب والنظافة وخدمة البيت والمسكن، ويُحرم بسببها من رعاية المرأة وحنانها عند نزول الأمراض والأسقام عليه، وفي وقت حلول الشيخوخة ومتاعبها لديه، وهذه شدائد متراكمة، ومشاق متعاظمة، لا يتحملها إلا من رأى الصبر عليها أهون عليه من فقد الازدياد من العلم وتحصيله وبثه فآثر ما يراه له أغنم وأعظم، على ما يراه له ألذّ وأنعم" "العلماء العُزّاب" ص 8، وقد تنوعت مشاربُ هؤلاء العلماء العزّاب فكان بينهم أهل الفقه والحديث والتفسير والأصول وعلماء اللغة والأدب ومؤرخون وزهاد في عصور مختلفة قديمًا وحديثًا. أذكر منهم: ابن تيمية شيخ الإسلام، والنّووي الوليّ الصالح والعالم الفذ، وابن النّفيس الطّبيب المشهور، وابن الخشّاب النّحوي الماهر، والإمام المجتهد أبو جعفر بن جرير الطبري.

وعلى ذات النّهج سارت نساء عالمات، فاخترْن حياة العزوبة على الزواج، ومنهن: فاطمة بنت الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي شغلها طلب العلم وتدريسه عن الارتباط رغم ما اتصفت به من الجمال. ونفيسة بنت أبي

العلا بن أحمد بن محمد بن ضيف التي كانت تلقب ب "شيخة أهل زمانها"، وكانت ترفض بشدة تعليم البنات، لعدم مواظبتهن على حفظ القرآن بسبب انشغالهن بعد الزواج. ومن العالمات المغربيات المعاصرات نذكر العالمة الجليلة والمسندة الفقيهة الحاجة بهية بنت هاشم القطبي الفلالية المكناسية، التي عكفت على دراسة العلوم الشرعية على يد مشايخ المغرب وتونس، وكانت تلقي دروسًا للنساء في الجامع الكبير بمكناس، ولم تتزوج كذلك.

ولئن كانت هذه العنوسة إرادية منبثقة من قناعات شخصية، فإنها لم ترقَ إلى مستوى الظاهرة كالعنوسة اللاإرادية التي تعانيها مجتمعاتنا اليوم. فأمثال هؤلاء العلماء- وإن عزفوا عن الزواج- فقد كان لهم من العلم والإيمان ما يمنحهم القوة والمنَعة والحصانة التي تصونهم من الوقوع في الزلل. أما من أجبرته ظروف الحياة القاهرة على العنوسة مع وجود رغبة جامحة في النكاح؛ فذاك الذي يُخشى عليه، ويُخشى منه كما قال الأديب الأريب الرافعي:" لو تنبّهت الحكومة لطردت من عملها كل موظف غير متأهل فإنها إنما تستعمل شرًّا لا رجلًا يمنع الشر، وكل شابّ تلك حاله هو حادثة ترتدف الحوادث وتستلزمها وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه".

وغير خافٍ- ونحن في عصر الانفتاح بلا قيود- ما يعانيه شباب اليوم بسبب انتشار المنكرات ويُسر الظفر بها، مما يؤجّج الشهوة ويدفعها للنّهل من مناهل الحرام في غياب الوازع الديني. والشهوة لها سطوتها على

اللبيب الفطِن، فكيف بالغافل الجاهل، يقول الشيخ أبو غدة في مقدمة كتابه "العلماء العُزّاب": "فإن غريزة الشهوة إذا استيقظت في الإنسان العَزَب، شتّت عليه الفكر والرأي، وأقلقت منه العين والنفس، وقد تزحزحه عن الجادّة والاستقامة، تهوي به إلى السُّقوط في هوّة الإهانة والهلاك".

لذا وجب العمل بشكل جدّي لاقتراح حلول سريعة لظاهرة العنوسة، والحدّ من تبعاتها النفسية والاجتماعية.

ومتى ظلّ سعيُنا بعيدًا عن أصول ديننا سنرجع بخفّي حنين؛ لذا فالواجب على كل الأسر الالتزام بتعاليم ديننا الحنيف الذي وضع قواعد وضوابط للزواج تيَسّره وتجعله سهل المنال.

ففي عهد سلف الأمّة ما كانت هذه المعاناة من غلاء المهور، إذ إن الإسلام تعامل مع المرأة على أنها كائن إنساني يشعر ويحس، وليست بضاعة معروضة للبيع، فجعل قيمتها في عقلها وخلقها، لا في شكلها وجمالها، و"لو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ " فالمرأة العاقلة حين تقبل بالزواج "تعتبر نفسها إنسانًا يريد إنسانًا، لا متاعًا يطلب شاريًا، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها إلا دليلًا على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها؛ أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها، أي: لحمقها، وهي بهذا المعنى من شرار النساء، وليست من خيارهن" "وحي القلم" ص 139، ولهذا فنحن بحاجة ماسة لإعادة ترتيب

أفكارنا وإقصاء تلك النظرة المادية من حياتنا، وفسح المجال لإنسانيتنا أن تقول كلمتها، حينها سيصبح المهر أمرًا ثانويًّا، وليس عقبة ومعيقًا كبيرًا عن الزواج كما في عصرنا. وكم هو عظيم هذا الوعي الذي نثر بذوره أمير الأدب الرافعي في "وحي القلم" حين قال:

"فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تحمل إلى داره، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره؛ مهرها معاملتها، تأخذ منه يومًا فيومًا، فلا تزال بذلك عروسًا على نفس رجُلها ما دامت في معاشرته" "وحي القلم" ص 139

نحتاج أن نعيد النظر في مسألة التعدد- و لا أتحدث هنا عن الجانب الشرعي لأنه عندي محسوم بما هو ثابت في الكتاب والسنة- بل إعادة النظر فيه من جانب تاء التأنيث التي تُجرّمه فيما بينها وبين نفسها، وتعتبره ضربًا من ضروب الغدر والخيانة مهما بلغ تدينها والتزامها.

نحتاج أن تؤوب المرأة إلى أنوثتها وحيائها وحسن احتوائها للرجل وتسديد سيره، نحتاج أن يحِنّ الرجل لرجولته وشهامته وغيرته على محارم ربّه. نحتاج أن يعْلم كلاهما أن الغاية العظمى من خلق الإنسان هي تحقيق العبودية لله، وليس الزواج فقط، فالزواج قد يكون معينًا على تحقيق هذه العبادة، وقد يكون مانعًا ومعرقلًا لها، وصدق ربنا إذ قال: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ (التغابن: 14).

لذا أختي لا تجعلي الحياة تتوقف عند محطة الزواج، واصلي السير على متن قطارها حتى تحين محطة الوصول إلى برّ الأمان، مارسي عبوديتك لربك بالتزام شرعه، اقرئي، أبدعي في عملك، شاركي في الحياة ولا تجعلي العنوسة قبر حياتك.

فالتلهّف الشديد على اللحاق بـ "قطار الزواج" والفزعُ الأشدّ من المكوث طويلًا في "محطات العنوسة" أنتج زيجات فاشلة وقلوبًا منكسرة وفلذات أكباد تسحقها دوامة الصراعات الأسرية.

فعيشي حياتك راضية بقدرك ولا تعبسي في وجهها!!



أبْدِعي.. ولا تَجْزَعي!

تُكابد الكثير من النساء مكابدة عظيمة في القيام بأشغال المنزل سواء كنَّ ربّات بيوت أو موظفات، وإن كانت حدّتها على الثانية أشدّ وأعظم؛ لأنها تُضاف لعبْء العمل وإكراهاته. ولعلّ هذه المعاناة هي التي حدَت بزهرة البيت النبوي- رضي الله عنها- أن تشتكي للرسول- ﷺ- ثقل تلك الأعباء المنزلية، وكلها أمل أن تظفر"بخادمة" تخفف وطأة هذا الحِمْل، لكن الرسول ﷺ أرشدها لما هو خير لها من "الخادمة" وهو الذِّكر، كإشارة لطيفة أنّ المرأة إذا ذكرت ربها أنزل الله إليها مددًا خفيًّا يعينها على تدبير أمرها، ففي الصحيحين: أن فاطمة- رضي الله عنها- أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى، وتسأله خادمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته، قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: "مكانكما، فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على بطني، فقال: ألا أدلكما على ما هو خير لكما مما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبّحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبّرا أربعًا وثلاثين؛ فهو خير لكما من خادم. قال علي: فما تركتها بعد، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين".

كثير من النساء- خصوصًا غير الموظفات- جلّ اهتمامهن بشؤون البيت من كنس وطبخ وتنظيف صباح مساء، وكثيرًا ما تُسائل المرأة نفسها حين يشتدّ بها الإرهاق: أحقًّا ما أقوم به فرض ربّاني كصلاتي وصيامي؟ لمَ كل هذا التعب وكل هذه المكابدة؟

وحُقّ لها التساؤل وهي تُبْصرُ بالمقابل زوجها أو أخاها أو ابنها مستلقيًا على ظهره غير آبِهٍ ولا مُكترثٍ بهذا العناء!

الثابت من خلال كلام العلماء أنّ أعمال المنزل لم يرِد فيها نص شرعي صريح يُلزم المرأة إلزامًا قطعيًّا القيام بها. ولهذا ذهب جمهور العلماء من شافعية وحنابلة وبعض المالكية إلى القول بأن خدمة الزوج لا تجب على الزوجة- إنما هي من باب العُرف الذي جرى العمل به بين الناس، قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- في "فتاوى نور على الدرب": " أما خدمتها لزوجها فهذا يرجع إلى العرف، فما جرى العرف بأنها تخدم زوجها فيه وجب عليها خدمته فيه، وما لم يجرِ به العرف لم يجب عليها، ولا يجوز للزوج أن يلزم زوجته بخدمة أمه أو أبيه أو أن يغضب عليها إذا لم تقم بذلك، وعليه أن يتقي الله ولا يستعمل قوته، فإن الله تعالى فوقه، وهو العلي الكبير عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا** ﴾.

وقال الشيخ ابن جبرين- رحمه الله- في"فتاوى العلماء في عِشرة النساء": "لم يزل عُرْف المسلمين على أن الزوجة تخدم زوجها الخدمة المعتادة لهما في إصلاح الطعام وتغسيل الثياب والأواني وتنظيف الدور ونحوه، كلٌّ بما يناسبه، وهذا عرف جرى عليه العمل من العهد النبوي إلى عهدنا هذا من غير نكير، ولكن لا ينبغي تكليف الزوجة بما فيه مشقَّة وصعوبة، وإنما ذلك حسب القدرة والعادة، والله الموفق".

وحيثُ علمتِ أنه ليس أمرًا لازمًا يوجب تركه العقاب، وأنه عملٌ تطوعي منكِ يكشف نُبل خلقك وحسن تربيتك، فهل أنت تاركة له؟

كل أنثى عاقلة ستجيب حتمًا بالنفي؛ لأنه بفطرتنا وبما درَجْنا على تعلمه ومشاهدته، هذا الكائن اللطيف أنسب من يقوم بهذه الأعمال الباطنة بالمنزل؛ لأن الله تعالى بحكمته أودع في كل جنس مقومات تجعله أقدر على القيام بأعمال دون أخرى، فلمسات الأنثى في إعداد الطعام وتنظيم المنزل وتنظيفه؛ أكثر براعة من نظيرتها عند الذكور. لكن الأمر يحتاج لغسيل كثير من الأدمغة حتى تشعر الأنثى بالرضا وهي تقوم بهذه الأعمال غير الإجبارية.

ولنبدأ بدماغ الرجل.. الذي يتعامل مع الأنثى التي تحت يده "زوجة، بنتًا، أختًا" كجارية أو خادمة مسخرة لتلبية طلباته والقيام بشؤونه، فتجده ينهرها ويكيل لها السباب لمجرد التأخر في إعداد الطعام، أو عدم ضبط

ملوحته، تستيقظ قبله وتهيئ إفطاره وتكوي ملابسه وتهتم بالأولاد دون أن تسمع ثناء أو تلمس تقديرًا أو تنويهًا بكل هذه المجهودات. يفسد ما أصلحته ولا يبالي، يلمح ضغط العمل عليها ولا تهتز نخوته لمدّ يد المساعدة لها، يأنف أن يدخل المطبخ لأنه في عرف تربيته هو مملكة الأنثى أو بالأحرى سجنها. ولو راجع هذا المسكين سيرة الرسول- ﷺ- لألْفاه في مهنة أهله يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويقم البيت، ويحمل بضاعته.

للأسف- في زمننا- بعض الرجال يستثقل حتى خياطة زرّ قميصه، أو كيّه فأحرى غسله. فهل أنتَ أفضل من سيّد البشر؟!

إن الرسول- ﷺ- بفعله هذا يبعث رسالة سامية لكل رجل، يعلمّه أن المساهمة في الأعمال المنزلية لا تخدش الرجولة، وخدمة الأهل مظهر من مظاهر التعاون على البِر والتقوى المأمور به شرعًا، وليست إثمًا أو عدوانًا حتى ينفر منه، وحسبكَ- أخي الرجل- أن خيريتك رهينة بخيريتك لأهلك كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي أن الرسول- ﷺ- قال: " خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".

وهذا نموذج جيّد للزوج الذي يعترف ويعتذر إلى زوجه عن تقصيره تجاهها، يقول الأديب المغربي ربيع السملالي:"حين أرى زوجي أمّ عبد الرّحمن منهمكة في الطّبخ أو في تنظيف البيت، وفي مسح الغبار عن هذه المجلّدات التي تملأ عليها البيت.. وهي فوق هذا لها ولدان وبنت

تقوم على شؤونهم كلّ يوم كعسكري في جبهة من جبهات العدوّ لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار؛ حين أراها على هذه الحال أشعر بالحرَج الشديد، لاسيما حين أتذكّر أباها بجسده النّحيف وهو يقول لي يوم عرسنا: ابنتي أمانة عندك يا ربيع فأحسن إليها ما وسعك الإحسان!.. فأندم ندامةَ الفرزدق حين راحت مطلّقة منه نُوار! وأتحسر على عدم الإحسان إليها كما ينبغي أن يكون الإحسان، وكمّا خمّن والدها حين زوّجها لشابّ شغله الشّاغل كتاب الله وسنّة نبيّه دراسة وحفظًا، ومستحيل أن يظلمها أو يشطط عليها!!.. فأحاول شكرها وإرضاءها على كلّ ما تقوم به في سبيل أن يكون هذا العشّ الدّافئ على ما يرام!.. فجزاها الله عنّي وعن أولادها خير الجزاء!"

فليت كل الأزواج والإخوة والأبناء يحملون في قلوبهم هذا الامتنان ويعترفون بهذا الفضل وهم يبصرون ذاك العرق يتصبّب من جبين زوجاتهم أو أخواتهم أو بناتهم.

أما أنتِ أختي الأنثى.. فكوني كَيّسة فَطِنة وأنت تتحملين هذه الأعباء، وعدِّيها باب فضل ساقه المولى لكِ، فإنْ أخلصت النية فيه وابتغيت بعملك مرضاة ربّك نِلتِ أوفر الجزاء، وهانت أمامك كلّ الصّعاب. وضعي نُصب عينيك أن سيدات نساء العالمين كنّ يمارسن هذه الأعمال في ظروف أشد قسوة وصعوبة، فها هي فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تقوم بخدمة زوجها علي- رضي الله عنه-، وها هي أسماء بنت أبي بكر- رضي الله

عنهما- تُخبر عن نفسها فتقول:" تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلاَ مَمْلُوكٍ وَلاَ شَيْءٍ غَيْرَ فَرَسِهِ، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيهِ مَئُونَتَهُ وَأَسُوسُهُ وَأَدُقُّ النَّوَى لِنَاضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وَأَخْرِزُ غَرْبَهُ وَأَعْجِنُ وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ وَكَانَ يَخْبِزُ لِي جَارَاتٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، قَالَتْ: وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَأْسِي وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ" أخرجه البخاري.

ومتى صادفتكِ حادثة من الحوادث المنزلية- وما أكثرها- فاحتسبيها لله تعالى، وتذكّري قول الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري:" ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه"

وجُلّ هذا يصيبك وأنتِ تتفانيْن في أداء هذا العمل العظيم، فأيّ خير تتمرّدين عليه، وأي فضلٍ تأْنفينَ نيْله!!

إنْ أدْمتِ السكين يومًا أصابعك، فسلّها بما سلّى به السلف الصالح أنفسهم، حين كانت دماؤهم تسيل فداء لله تعالى، فيقولون بكل ثبات ويقين:

هل أنــتِ إلا أصبع دَمِـيَـتْ وفي سبيل اللهِ مـا لقِيتْ

وقرّي عينًا حيثُ أثبت الدراسات العلمية الحديثة أن القيام بالأعمال المنزلية فيه فوائد صحية جمّة، فقد اعتبرتها الخبيرة الألمانية ألكسندرا بورشارد بيكر "عضو مبادرة حماية المستهلك الألمانية" سبيلًا لحرق

السعرات الحرارية، والحفاظ على وزن صحي ونشاط دائم؛ حيث يمكن لشخص يبلغ وزنه 70 كلغ حرق 600 سعرة حرارية بعد ساعتين من الأعمال المنزلية، أي ما يعادل ممارسة ساعة من رياضات قوة التحمل.

أختي الأنثى.. أخي الرجل،

إن الحياة لا يستقيم حالها إن قامت على أساس حسابات رياضية، بل سيرها الجميل حين يحفّها التعاون والتآزر والمودة بين الجنسين. الأصل أن تقومي أنتِ بأعمال المنزل، والأصل أن تكون أنتَ خير معين لها حين يتعثر بها المسير، هي زوجة أو أخت أو بنت وليست جارية تحت يديك، إن أبصرتَ منها تقصيرًا فكنْ رفيقًا بها، وإن أبصرتِ منه تجاهلًا فدونك خالقك تحتسبين جهدكِ عنده سبحانه.

وهمسة في أذن الآباء

عوّدوا أبناءكم- الذكور- منذ الصغر على خدمة أنفسهم، وترتيب غرفهم، وكيّ ملابسهم، علموهم تحمل المسؤولية في أدق تفاصيلها، ولا تزرعوا فيهم اللامبالاة فتحصدها بعدكم نساء المسلمين وبالًا وضنكًا!



همّة تاء التأنيث

كثيرًا ما اقترن ذكر النساء بالبراعة في فنون الطبخ والمهارة في تدبير شؤون المنزل، حتى غدَا ذلك درسَ الحياة الأول الذي على كل فتاة أن تتقنه لتكون جديرة بلقب "الزوجة" أو "ربّة البيت". فتراها منذ صباها، في لهوها ومرحها تغازل الدمية وتُهدهدها كطفلها الرضيع، تتمرّس على فنّ الأمومة في اعتقاد قاصرٍ أنها لا تتعدى حدود الأعمال المنزلية. فتأْلفُ الفتاة الدُّمى بدل أن تألفَ الكتب، وتصاحب فنون الطهي عوض مصاحبة فنون العلم والأدب. فلا تعجب إن وجدت كثيرًا من أمهات عصرنا "فارغات رؤوسهن شوامخ". همهن مطعم وملبس ومأوى، يأنفن من العلم أو يعتبرنه مجرد مطيةٍ لمناصب وألقاب.

بيْد أنّ النساء لسْن على سجّية واحدة، فعلَى مرّ التاريخ الإسلامي كانت هناك شموسٌ مشرقة خرقت هذا القانون وأنارت بعلمها وفقهها دروب الحياة فكانت نبراسًا يُحتذى به. وكم تأسرني سيرتهن، وأعشق السياحة في بحور علمهن أتفيأ تلك الظلال الوارفة التي استظل بها الرجال والنساء معًا. هؤلاء من أعتبرهن نساء يفخر التاريخ بهن؛ لأنهن رفضن الخضوع والانصياع للجهل والغطرسة الذكورية، وسعين بكل جرأة لطلب العلم متلفّعات بالحياء مستمسكات بعروة ربهن الوثقى. وما يثير الانتباه في

بعض سيرهن؛ أن نبوغهن كان بتحفيز من آبائهن وذويهن، عكس ما شاع في عصور الانحطاط من منع النساء من ولوج بوابة التعليم، فكانت النتيجة أجيالًا كسيحة عاجزة عن تدبير شأنها الخاص فأحرى تدبير شأن أمتها!

وإليكم ذكر السيدة الفاضلة فاطمة ابنة الحافظ القاسم البِرزالي، التي رغم حداثة سنها ووفاتها في سن مبكرة "24 عامًا"، إلا أنها نهلت من العلم الشيء الكثير، وأعطت مثالًا راقيًا في علو الهمّة عن تاء التأنيث، فقد ذكر صاحب كتاب "المشوق إلى القراءة وطلب العلم" أن فاطمة أسمعها أبوها من مئة وخمسة وثمانين شيخًا، ونقل ابن الجزري عن والدها أنه قال:" سمعت صحيح البخاري على ستّ الوزراء بنت المنجّا، وحفظت من الكتاب العزيز، وتعلمت الخطّ وكتبتْ رَبعة ظريفة، ونسخت كتاب الأحكام لابن تيمية "الجد"، وصحيح البخاري، وكمّلته قبل موتها بأيام يسيرة، قال الصفدي: ونُسختها هذه بدمشق من النسخ التي يعتمد عليها وينقل منها".

ومن بديع السير المثيرة للفخر والإعجاب سيرة العالمة الفاضلة الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عيّاش بن أبي الفتح بن محمد البغدادية، فقد قال عنها الحافظ ابن حجر في "الدرر الكامنة" "فاطمة بنت عيَّاش بن أبي الفتْح البغدادية أم زَيْنَب الواعظة، كانت تدْري الفقه جيدًا، وكان ابن تيمية يثني عليها ويتعجب من حرصها وذكائها. وانتفع بها نساء أهل دمشق لصدقها في وعظها وقناعتها، ثم تحولت إلى القاهرة فحصل بها النَّفْع وارتفع قدرها وبعُد صيتها

وكانت قد تفقهت عند المقادسة بالشيخ ابن أبي عمر وغيره، وقَلّ من أنجب من النساء مثلها. ماتت ليلة عرفة سنة 714 هـ".

كما أثنى عليها ابن كثير- رحمه الله- في "البداية والنهاية" حيث قال: "كانت من العالمات الفاضلات.. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية فاستفادت منه.. وقد سمعتُ الشيخ تقي الدين يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم.. ويذكر أنها كانت تستحضر كثيرًا من المغني أو أكثره.. وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها".

وفي كتاب "الأعلام" تحدث الزركلي عن حفصة بنت الحاجّ الركونية الأندلسية، وذكر أنها كانت شاعرة، انفردت في عصرها بالتفوق في الأدب والظرف والحسن وسرعة الخاطر بالشعر. وهي من أهل غرناطة. نعتها ابن بشكوال بأستاذة وقتها. وكانت تعلم النساء في دار المنصور.

وقياسًا على هذه النماذج الراقية، فاح في سلف الأمة أريج نساء عالمات وفقيهات ومحدثات، تتلمذ على أيديهن مشايخ وعلماء ذاع صيتهم، كابن عساكر الذي قيل أنه حمل الحديث عن أكثر من مئتي محدثة، والإمام أحمد بن حنبل كانت له أربعة من الشيخات أخذ عنهن. بل منهن من كانت همتها في التحصيل العلمي عالية حتى رمقها الأخير، كزينب بنت يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام السلمِيّ التي قال عنها الإمام الذهبي: "كان فيها

خير وعبادة وحب للرواية بحيث أنه قرئ عليها يوم موتها عدة أجزاء".

وتطيب الذكرى مع المفكرة والأديبة الباحثة العالمة عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، والتي كانت أول امرأة تُحاضر بالأزهر، ومن أوائل من عمِلن بالصحافة في مصر. بدأ نشاطها الفكري في سن مبكرة "18 سنة" وكان ذلك بمجلة النهضة النسائية، وبعدها بجريدة الأهرام كثاني أديبة بعد مَي زيادة، وكان لها مقال أسبوعي مطول. تدرجت في المناصب الأكاديمية إلى أن أصبحت أستاذًا للتفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب، فساهمت في تخريج أجيال من العلماء والمفكرين. وكانت لها مواقف فكرية بارزة وحاسمة أبرزها مناهضتها للتفسير العصري للقرآن الكريم دفاعًا عن التراث، ودعمها لتعليم المرأة وضرورة احترام إنسانيتها وفكرها. وقد خلّفت إرثًا علميًّا وأدبيًّا مُهمًّا في مجالات شتّى: دينية وأدبية وتاريخية.

وهاؤم نموذجٌ آخر لسيدة كريمة اعتُبرت أحد دعامات العمل الإسلامي النسائي بالوطن العربي وهي زينب الغزالي، فسيرتها العطرة تسُرّ خاطر كل أنثى لبيبة، جمعت بين التحصيل العلمي، والعمل النضالي دون أن تنساق خلف الجمعيات الحقوقية النسائية الحديثة. مزجت في دراستها بين التعليم الأكاديمي الحديث والتعليم التقليدي القائم على الأخذ المباشر من الشيوخ. كانت خطيبة مفوّهة تلقت الخطابة والإلقاء عن والدها. اعتقلت بسبب مواقفها،

وعانتْ ألوانًا من الاضطهاد سجلتها في سيرتها الذاتية "أيام من حياتي". كانت تتُوق لتأليف أول تفسير نسائي للقرآن الكريم، فكان لها ذلك، فظهر مجلدها الأول الذي لقي صدى طيبًا وإقبالًا حسنًا، وكتبت عنه الكثير من الصحف والمجلات. ولِشغفها بالعلم فقد كانت مكتبتها- كما قيل- من أضخم المكتبات التي يحتويها بيت عالم وفقيه، فحَوَت كتبًا في التفسير والفقه وعلوم الحديث إلى جانب الكتب الدعوية والحركية، بل ذُكر أن بها كتبًا يزيد عمرها عن المئة سنة. ولأن الأدب يليّن الطباع ويغرس في المرء كل قيم الجمال، فقد كانت السيدة زينب الغزالي حريصة بحِسِّها الأنثوي الأدبي على حضور الجمال في محيطها وبيتها، كما يذكر ذلك سكرتيرها بدر محمد بدر: "الحاجة زينب الغزالي كانت تحرص على الجمال في بيتها، فتجد الورود والعطور والمكان الذي يريح النفس، فكانت تعتبر أن الداعية يجب أن يكون جميلًا وما حوله يساعده على أداء هذا الدور، وبالتالي كان الصحفيون والصحفيات الغربيون الذين كانوا يذهبون إليها يدهشون من جمال بيتها وجمال الفرش الموجود مع البساطة الواضحة فيه".

ومسك الختام عالمة جليلة من بلدي الحبيب وهي العالمة المسندة الفقيهة الحاجة بهية بنت هاشم القطبي الفلالية المكناسية. أول مغربية تحظى بشهادة العالمية من جامعة الزيتونة، ختمت القرآن في سن الرابعة عشر، واجتازت امتحان القرآن على يد القاضي محمد بن أحمد

الإسماعيلي، ثم التحقت بحلقات العلم بالجامع الكبير وتتلمذت على يد كبار العلماء به، وبعد سفرها إلى تونس في إطار بعثة علمية، التحقت بجامع الزيتونة ودرست به خمس سنوات، نالت بعدها شهادة العالمية.

كانت تُلقي دروسًا للنساء في الجامع الكبير بمكناس، وأجازت الكثير من أهل العلم في المغرب والمشرق، ومن جميل ما تناقله أهل العلم عنها أنه رغم تقدمها في السن ظلت مواظبة على أداء الفرائض والسنن، حريصة على أذكارها، محبة لطلب العلم ونشِطة في مذاكرته كما في صباها. وإلى حدود كتابة هذه الأسطر الثلاثاء "23 مارس 2016" مازالت السيدة بهية على قيد الحياة وقد بلغت من العمر 107 سنة- حفظها الله وبارك فيها-.

لهذا حين تكون نون النسوة نونًا فاعلة غير مفعول بها، فإنّ الحياة تكون مثمرة بعيدة عن العبث، فتُقبل مع الجنس اللطيف كل اللطائف الكونية، وترتقي واو الجماعة بتفكيرها العبثي في هذا الكائن. بل تقف له بشموخ وتنحي له بإكبار، مقرّة بتفوقه وبراعته، قابلة للتعلم على يديه دون الشعور بأدنى حرج.

هكذا نريد تاء التأنيث اليوم، بعيدة عن سفاسف الأمور، مقبلة على التحصيل العلمي الجاد الذي يرقى بعقلها وأخلاقها وطموحاتها. صحيح أن الإحصائيات اليوم تؤكد أن الإناث يتفوقن على الذكور في كثير من المستويات التعليمية- بما فيها مجالات كانت حكرًا على الذكور- لكن للأسف طموح كثير من النساء يبلغ منتهاه بمجرد الظفر

بتلك الشهادة الجامعية، أو الالتحاق بمؤسسة الزواج. فتقع القطيعة الذميمة بينها وبين التحصيل العلمي، ويغدو العلم مجرد ذكرى جميلة، أو همًّا طويت صفحته.



اللّهَ.. اللّهَ.. في فلذات أكبادنا!!

وأنت تطالع قصة الغلام المؤمن والساحر وتُلقي نظرة على غلماننا، تكاد تميّز من الغيظ. بوْنٌ شاسعٌ بين ذاك الذي عَلَتْ همّته وعظُم فعله، وبين هؤلاء الذين ما جاوزت هممهم حدَّ اللهو واللعب. شخصية هذا الغلام ينبغي أن تدرَّس للنَّشْء صباح مساء وتغدو أنشودتهم في غدوهم ورواحهم، منذ قرأتها من سنوات أَسَرَتني تلك الشخصية الفذّة، وشدَّني ارتباطها الوثيق بالله تعالى منذ الصغر، مع أنه كان عُرضة للضياع من خلال تردده على الساحر، لكن إيمانه العظيم بالله تعالى صنع منه أُنْمُوذجًا بطوليًّا خلَّده القرآن الكريم إلى يوم الدين. بكل ثباتٍ كان يخاطب عِلية القوم ويدعوهم لله تعالى، وبكل يقين كان يخطو بين الناسِ غير آبهٍ بجبروت الظلمة؛ لأنه يعلم أنه مع قاهر الجبابرة وملك الملوك ومالك أمرهم، لم تخُرْ قواه وهم يحاولون الخلاص منه، بل كان دومًا مرتبطًا بطوق النجاة "اللهم اكْفِنِيهم بما شئت".

وضع نصب عينيه هدفًا عظيمًا فعاش عظيمًا ومات عظيمًا رغم حداثة سنه. لم يسترخص حياته في سبيل الله، ولم يستصغر نفسه وهو يجاهد من أجل إعلاء كلمة الله، ولم يستكبر وهو يبصر الكرامات الإلهية تحيطه وشآبيب رحمته تتنزل عليه.

وعلى هذا النهج العظيم ربَّى معلمنا الأول محمد ﷺ الأطفال والشباب، فغرس فيهم حب الله وتعظيمه منذ نعومة أظفارهم، ولقّنهم أصول الحياة ودعاماتها وهم يتقلبون فيها. فها هو جندب بن عبد الله- رضي الله عنه- يقول:" كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزاوِرة- أي قاربنا البلوغ- فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا" "رواه ابن ماجة".

وها هو عبد الله بن عباس- رضي الله عنه- يتلقى منذ صباه تلك الوصية الجامعة المانعة في حسن عبادة الله والتوكل عليه والاستعانة به وهو يسمع النبي المصطفى يفقهه بقوله: "يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك: احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله". ويروي الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- بطولة معاذ بن عمرو بن الجموح ومُعَوِّذ بن عفراء- رضي الله عنهما- في معركة بدر حين اشتدت غيرتهما على رسول الله ﷺ، وقررا الانتقام له:" إِنِّي لَفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ إِذِ الْتَفَتُّ، فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ، فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا، إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ: يَا عَمُّ، أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ؟ فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَالَ: عَاهَدْتُ اللَّهَ عز وجل إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ، أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ، فَقَالَ لِي الآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ، فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ بِمَكَانِهِمَا، فَأَشَرْتُ لَهُمَا إِلَيْهِ، فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّى ضَرَبَاهُ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ".

وها هو أسامة بن زيد ابن الخامسة عشر يصول ويجول مع الصحب الكرام في الكثير من الغزوات مدافعًا عن دين الله مُعليًا رايته، بل ويحظى بثقة الرسول ﷺ فيعيّنه قائدًا على الجيش الذي سيقاتل الروم ويحرز انتصارًا باهرًا رغم حداثة سنه. نماذج رائعة يقشعر لها البدن وتسمو بها الروح افتخارًا وزهوًا أنْ كانت إسلامية، نماذج تجعلك تشعر أن الرجولة لم تكن تنبت من فراغ، بل كانت تُسقى في المهد وتُصنع في مصانع خاصة بمواد أولية ذات جودة عالية أساسها الإيمان بالله واليقين به وحسن التوكل عليه، مع الجرأة والشجاعة والإحساس بالمسؤولية الجماعية بعيدًا عن الأنا والتخاذل.

هؤلاء إذًا غلمانهم، فكيف هم غلماننا؟

طفلنا يا سادة يعيش طفولته سنينَ عديدة، وأعوامًا مديدة، ينمو نموًّا بطيئًا يساير حالة الخمول التي تعيشها الأمة، طفلنا يعيشُ طفلًا طيلة مراحل تمدرسه وإن جاوز السابعة عشر. فهو في مرحلة الابتدائي "طفل" وفي مرحلة الإعدادي "طفل" وفي مرحلة الثانوي "طفل"، يظل في العرف الاجتماعي والأسري ذاك الغلام الذي يُخشى عليه من فتك الذئاب، فلا يُقلَّد أيّ مسؤولية لأنه "طفل"، ولا يُعهد له بتسيير أبسط الإشكالات لأنه "طفل"، فينشأ عديم الخبرة قليل الحيلة، ويبقى لصيقًا بأهله حتى يشتد عوده، كيف له أن يكون غير ذلك وسمعه اعتاد تلك العبارات المثبطة "سِرْ

انْتَ باقي صْغير" "اسْكُتْ أنت ما كَتَعْرَفْ وَالو"، ولهذا أنشأنا أجيالًا خاوية الوفاض، لا تعِي معنى الإيجابية، ولا تفقه شيئًا في المسؤولية، اهتماماتها لا تتعدى حدود الطعام واللباس والمدرسة واللهو، بل حتى إنها لا تملك جرأةً في الخطاب، ولا تستطيع اتخاذ أبسط القرارات في الأمور الحياتية العادية، خنوع واستسلام ولامبالاة نلمسها من خلال احتكاكنا اليومي بهؤلاء الغلمان. مَنْ عجز عن قيادة نفسه كيف نأمل يومًا أن يقود صحوة تنقذ الأمة من مستنقع الضلال والضياع؟ إن الرجولة ليست هطلًا ينزل من السماء، بل هي غرسٌ يُغرس بالأرض منذ الصبا وينبغي أن يُتعهد بالسُّقيا والاهتمام من الأسرة ومن كل الفعاليات بالمجتمع. نحن نشتاق فعلًا لجيل يفتخر بدينه ويعيش بقيم سليمة صحيحة ويبني وطنه بناء قويمًا لا اعوجاج فيه، نشتاق أن نرى تلك العيون الجريئة لا الوقحة، تلك الألسن الذاكرة العابدة لا العابثة في سوق الخنا والخنوع، تلك القلوب النقية المرتبطة بربها لا بسفاسف الأمور.

فالله الله في غلماننا فَهُم فجرنا الباسم الذي نتوق لمعانقته يومًا ما!



فسدَ الأصلُ؛ فمالَ الفرعُ

الأمومة غريزة أودعها الله تعالى نفوس النساء، بها تحب المرأة وليدها وتحنو عليه وتكابد لأجله كل الصعاب. لكن الله ما أودع في النفوس هذه الغريزة إلا لتكون وسيلة لغاية أسمى، لا أن تكون غاية في حد ذاتها، إذ بهذا الحنو والعطف تسْتبسل الأم في أداء مهمة التربية وإعداد الأجيال التي تنهض بالأمة، وبهذه الغريزة تقتحم العقبات وتُديم سقي الغرس حتى يزهر ويثمر.

لكن الذي يؤسف له أن الأمومة صارت عند الكثيرات غاية لا وسيلة، فَجُلُّ ما تصبو له نساء اليوم هو الظفر بزوج وإنجاب أبناء، وغاية ما يقضّ مضجعهن ألا يُنعتن ب "العوانس" أو "العقيمات"، ولهذا تخلفت الأم عن دورها التربوي، وتقاعست تلك المدرسة الرشيدة عن إنجاب الأجيال الواعدة، وغدت مجرد آلة لتفريخ النسل، جلّ اهتمامها توفير المأكل والمشرب والملبس لفلذة كبدها، والحرص على أن يبدو في ظاهره أنيقًا جميلًا، ولا ضيْرَ أن يكون سطحي الفكر عديم المسؤولية! ولمَ تؤرقه بهمِّ الأمة والدين والدعوة، فلْيعش لنفسه ومستقبله فحسب!

وفي غياب القدوة والمربي انْبرت جهات أخرى للأمر، فصار الشارع يربي وأضحى الإعلام يوجه ويشحذ أفكار الصغار بكل ما هو فاسد وتافه، وتُرِك الأولاد فريسة للوحدة والضياع في غياب تواصل حقيقي وبنّاء معهم.

وَإِذا النِساءُ نَشَأنَ في أُمِّيَّةٍ   رَضعَ الرِجالُ جَهالَةً وَخُمولا

لَيسَ اليَتيمُ مَنِ اِنتَهى أَبَواهُ مِن   هَـمِّ الحَـيـاةِ وَخَـلَّـفـاهُ ذَليلا

إِنَّ اليَتيمَ هُوَ الَّـذي تَلقى لَهُ   أُمًّـا تَخَـلَّـت أَو أَبًـا مَشغولا

لهذا إنْ أبصرتَ أمهات عصرنا بصحبة بناتهن وأولادهن في مسابقات الغناء وبرامج الفساد والإفساد، بل ورأيتهن يصفقن لهم ويتضرعن بالدعاء لله أن يوفقهم للظفر بمثل هذه المسابقات، فإنك لا تملك إلا أن تعلن حكم البراءة لهذه الأجيال، فحيث فسد الأصل مال الفرع!!

ما ذنبهم إن كانت مدرستهم لم تلقنهم سوى هذه المناهج التي تدعو للتفسخ والانحلال؟

وكيف نلوم طفلة علمتها أمها الدندنة منذ الصغر، وراقصها والدها على نغمات القيثار منذ نعومة أظفارها؟

ماذا ننتظر من جيل فقد معلّموه الأهلية إلا أن يكون جيلًا مسخًا مشوّهًا لا هوية له ولا ملامح؟

ألا يا أمهات المسلمين أفقن من سباتكن، فما أيسر الإنجاب وما أصعب التربية وما أشقها، ولأجلها جعلت الجنة تحت أقدامكنّ.

تعلّمن الدروس والعظات من الأمهات المدرّسات اللواتي أنجبن للأمة علماء وقادة مازال التاريخ يردد أسماءهم ويتغنى بفضل أمهاتهم، ودونكم هذه النماذج المشرقة.

فها هي أم الشافعي تغذي في ابنها روح المصلحة العامة وتُنذر حياتها له لتصنع منه عالمًا يجمع الله به شمل الأمة فتقول له: "يا بُني مات أبوك، وإننا فقراء، وليس لنا مال، وإني لن أتزوج من أجلك، وقد نذرتك للعلم، لعل الله يجمع بك شمل هذه الأمة"، فجاهدت فيه وأحسنت تربيته حتى غدَا عالمًا من علماء الأمة.

وهذا أبو الفرج ابن الجوزي توفي والده وله ثلاث سنوات، فتعهدت أمه وعمته بتربيته وتلقينه مبادئ العلم النافع، فأخذتاه إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر وهو خاله، فاعتنى به وأسمعه الحديث وحفظ القرآن وتتلمذ على يد مشايخ عصره متقلبًا بينهم ينهل من فيض علمهم. ويولي وجهه شطر وِجهة ارتضتها له أمٌّ حكيمة وعمّة ناضجة.

وكثير منا يعرف قصة "ستّ الركب"، أخت الإمام ابن حجر العسقلاني التي نشأت في بيت علم وفقه ونالت الإجازة من والدها ومن علماء بمكة ومصر وتونس وغيرها، حيث اعتنت "ستّ الركب" بتربية أخيها ابن حجر،

فأخذ منها مكارم الأخلاق والصلاح والتقوى، وكان يقول عنها: "كانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء وهي أمي بعد أمي"، ويقول ابن حجر في موضع آخر: "كانت بي برّة رفيقة محسنة جزاها الله عنّي خيرًا، فلقد انتفعت بها وبآدابها مع صغر سنها".

ولما رحلت "ست الركب" عن عالَم ابن حجر وكان عمره 24 سنة، تألم لفراقها ألمًا شديدًا، وكتب يرثيها وكأنَّه يرثي أمه، لأنَّها كانت أمَّه بالفعل، ويقول:

بكيتُ على تلك الشَّمائل غالَها … كثيف الثرى بعد التنعُّم واللُّطف

بكيتُ على حِلم وعِلم وعِفة … يقارن مع عز الهدى هزة الظُّرف

بكيتُ على الغصن الذي اجتُثَّ أصلُه … ولم أجنِ من أزهاره ثمر القطف

وساقت أم إسراء بنت عرفة بيومي في كتابها "نساء صنعن علماء" نموذجًا آخر لامرأة لبيبة خَبِرت دروب الحياة فسددت كلماتها لترفع همة فلذة كبدها وتشدّ من عزيمته للمضي قدمًا نحو الأمام، تلكم أم محمد بن عبد الرحمن الأوقص- الذي كان كما روى أبو إسحاق- عُنُقُه داخلًا في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زُجَّان فقالت له أمه: يا بني لا تكن في قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنّه يرفعك.

قال: فطلب العلم قال: "فَوُلِّي قضاء مكة عشرين سنة، قال: فكان الخصم إذا جلس بين يديه يُرْعَدُ حتى يقوم".

وكثير من الصحابة والصالحين يدينون لأمهاتهم أو أخواتهم بالفضل لأنه كان لهن الفضل الكبير في مسيرتهم العلمية والعملية: فالزبير بن العوام مدين بعظمته لأمه صفية بنت عبد المطلب، وعبد الله والمنذر وعروة ثمرات غرس أمهم أسماء بنت أبي بكر، ومعاوية بن أبي سفيان ورث عن أمه هند بنت عتبة من قوة الشخصية وألمعية الذهن ما لم يرثه عن أبيه أبي سفيان.

وبعيدًا عن علماء الدين، نستقي نموذجًا أنثويًّا أدبيًّا وهي الأديبة والشاعرة العراقية نازك الملائكة التي قالت عن أمها سلمى عبد الرازق: "والدتي كان لها أثر واضح في حياتي الشعرية؛ لأنني كنت أعرض عليها قصائدي الأولى فتوجه إليها النقد وتحاول إرشادي".

وقال لينكولن: "إني مدينٌ بكل ما وصلت إليه وما أرجو أن أصل إليه من الرفعة إلى أمي الملاك".

وقال توماس أديسون عن أمه: "إن أمي هي التي صنعتني لأنها كانت تحترمني وتثق بي، أشعرتني أني أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريًّا من أجلها، وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلني قط".

ومن النماذج الطيبة في عصرنا الحالي سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز الذي نشأ يتيمًا في حضانة والدته هَيَا بنت عثمان بن عبد الله

الخزيم، حيث توفي والده وله من العمر ثلاث سنوات، فاعتنت به والدته ويمّمت بوجهه شطر العلوم الشرعية فكان عَلمًا من أعلام الأمة البارزين.

فأساس صلاح الأبناء صلاح الأم، ولهذا نقول عندنا في المغرب: "الرَّابَحْ منْ المرَا والخَاسَرْ من المرا"، يعني مناط الصلاح والفساد راجع للمرأة، فإن صلحت صلح معها الزوج والأبناء وبالتالي صلح المجتمع، وإن فسدت فقد جَنَتْ على الجميع.

الأم مدرسة متى كانت مؤهلة دينيًّا وعلميًّا وخلُقيًّا أنتجت للمجتمع أجيالًا رائدة عالية الهمة، ومتى فَقدت هذه الأهلية فلا تُتعب نفسك في السؤال: لماذا تردّت أجيالنا ؟ولا تسَلْ ما بال شبابنا، وسلْ ما بال آبائنا وأمهاتنا؟

فحيث استقام الأصل استقام الفرع إلا ما نذر!



أَفَتَّانَةٌ أنتِ يا حواء!!

حين أخبر الصادق الأمين، أنه لم يترك فتنة أعظم على الرجال من النساء، ما كان قوله عبثًا، وحاشاه ﷺ أن يقول شيئًا عبثًا. فبعيدًا عن أيّ مزايدات نسائية، الأنثى فعلًا تعتبر بابًا عظيمًا من أبواب الفتنة: هي فتنة حالَ تبرجها.. وفتنة حالَ تحجبها.. بل وفتنة وهي بنقابها. عذراء فتنة.. مطلقة فتنة.. متزوجة فتنة. لم يسلم الرجل من بعثرة كيانه حالَ تواصله معها في كل أحوالها وبشتى هيئاتها.

وقد تفنّنت المرأة المعاصرة في تطوير هذه الفتنة فألبستها لبوسًا شيطانية بأنماط شتى في لباسها، وغنجها ودلالها.

ألستِ أختي الأنثى باعثة على الفتنة ومحركة لِلهيبها حين تحرصين أشدّ الحرص على ارتداء ما شَفَّ من الثياب، واقتناء ما أثار من الألوان، ولبس ما يكاد جسمك يختنق من شدة التصاقه به؟

أتراكِ تعتقدين أن التمايل في المشي ورخامة الصوت هي حقًّا مقومات الأنوثة الحقّة؟ بلى هي كذلك، ولكن في بيتك ومع أهلك وبعلك الذي صار معك بغلًا لا يفقه الكثير من دَوَاهِيك؟

رفعتِ الحرج عن صورك وجعلتها مشاعًا على هذا الواجوه "الفيس بوك" وذاك المِغراد "تويتر"، أفلا ترين أنها فتنة لذاك الذي أقعده زمننا القبيح عن النكاح؟ وذاك الذي قدّر الله أن ينكح من هي أقل منك بهاء وجمالًا؟ أم حقًّا صدّقت أنّ نَشْركِ لصورك بالحجاب والنقاب إنما هي من صميم الدعوة إلى الله، وأنكِ بفعلك هذا تحبّبين الزيّ الشرعي لغيرك؟ كلّا وربي كلا. ذاك مدخل من مداخل الشيطان، ولك أن تبصري ذاك الذي يقول عنك "رائعة/ جميلة/ ما شاء الله...." بأيّ صفة يتغزلون بك أختي المكرمة.. هذا عن ذات اللباس الشرعي، أما تلك السافرة فمصيبتها أشد وفتنتها أعظم!

إنني حين أقرّ أنّكِ فتنة؛ فهذا من مبدأ الإقرار بما أكّده رسولنا ﷺ حين قال في الحديث الذي أخرجه البخاري: "ما تركتُ بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء"، ومن مبدأ الحقائق الكثيرة المشاهدة في كل مكان وفي كل فضاء "أماكن العمل/ الأسواق/ الشوارع/ الفضاءات العمومية...."، وقد سئل ابن سيرين عن النساء؟ فقال: "مفاتيح أبواب الفتن". ورُوي عن سعيد بن المسيب- رضي الله عنه- أنه قال:" ما من شيء أخوف عندي من النساء".

وقد صدقوا !!

وكونك فتنة قد لا يكون قدْحًا فيكِ ما دمتِ تتجنبين إثارتها، فكثيرًا ما نرى الفتاة بزيّها الشرعي السابغ، وكلامها المتّزن العاقل، قد أثارت بحسن سمتها غيرها، فهل معنى هذا أنّ الخلل يكمنُ فيها؟ الجواب بالنفي- في اعتقادي-

هو الأصوب؛ لأن المرأة بطبيعة خِلقتها أوْدعَ الله فيها مثيرات تجعل الرجل ينجذبُ إليها باعتبارها أنثى بغضّ النظر عن جمالها أو قبحها. لهذا فالرجل يتحمل قسطًا مهمًّا في إثارة هذه الفتنة وتوجيهها وحتى استغلالها.

أختي المسلمة في سعيكِ لإثبات أنوثتكِ؛ حافظي على مقومات هذه الأنوثة وفي مقدمتها حياؤك، فَ "أساسُ الفضيلةِ في الأُنوثةِ؛ الحياءُ" كما قال الرافعي، ولا تكوني سلعة رخيصة تتلقفها الأعين والأيدي فتزهد فيها بعد أن تقضي وطرها منها.

احرصي على أن تكوني مفتاحًا من مفاتيح الخير، لا بابًا من أبواب الفتنة، واعلمي أنكِ بإثارتها تبوئين بخسرانٍ عظيم!



أرذلُ العمر

لكلِّ مرحلة عمريَّة مقتضياتها وحاجياتها، وقدَرُ اللهِ أن يتقلَّب خلقُه في الحياة بين الضعف والقوة؛ ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً** ﴾ (الروم: 54). فقد يمتدُّ بنا العمر فنبلغ أَرْذله؛ كما قال ربّنا: ﴿ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ** ﴾ (الحج: 5).

هذه المرحلة كثيرًا ما تقضُّ مضجعَ البعض وتنشِئ عندهم هواجس ومخَاوف؛ لِما يكتنفها مِن ضعفٍ، وما يعقبها من تدَهْور في صحَّة المرء وعقلِه، ولهذا كان رسولنا الحبيب ﷺ يتعوَّذ منها بقوله: "اللَّهم إنِّي أعوذ بك مِن الجُبن، وأعوذ بك من أن أُردَّ إلى أَرْذل العمر، وأعوذُ بك مِن فِتنة الدُّنيا، وأعوذ بك مِن عذابِ القبر"، قال الصنعانيُّ في "سبل السلام": "والمرادُ من الردِّ إلى أَرْذَل العمر: هو بلوغ الهرم والخرف، حتى يعود كهيئتِه الأولى في أَوان الطُّفولة؛ ضعيف البِنية، سخيفَ العَقل، قليلَ الفهم"، وقال المباركفوري في "تحفة الأحوذي": "ويُقال: أَرْذَل العمر أرْدَؤه، وهو حالَة الهرم والضَّعف عن أَداء الفرائِض وعن خدمةِ نفسِه فيما يتنظَّف فيه، فيكون كَلًّا على أَهْله، ثقيلًا بينهم، يتمنَّون موته".

في "أرْذل العمر" تحتاج هذه الفِئة لعنايةٍ خاصَّة تستجيب لكلِّ التغيُّرات الطَّارئة جسديًّا وذهنيًّا، وحين يكون الاحتواءُ مِن ذَوي القربى، فإنّ هذا يخفِّف عنهم عِبْء هذه المرحلةِ وآلامَها. لكن متى تُركوا فريسةً لذئاب البَشر؛ فإنَّ الآلام تشتدُّ بحجمِ اشتداد الضَّعف وخوَرِ القوى، وهذا للأسفِ ما تَسْرد فصوله بلا مَللٍ تلك الدُّور التي آوَت بين جدرانها مَن لفظَتْهم الحياةُ عند "أرذل العمر".

لو اقتطَعْت يومًا من أيامِك وقمتَ بإطلالةٍ لإحدى الجمعيَّات الخيرية؛ لأيقنتَ أنَّك ترفل في نعيمٍ مقيمٍ وأنت تأوي إلى منزِلك، تحفُّك أسرة تمازِحها وتشاكسها، تملُّ منها تارةً وتأوي إليها أُخرى، تمارِس معها كلَّ فنونِ الحياة بتقلُّباتها. لكن هؤلاء فقدوا كلَّ بهجةٍ في الدنيا، توقَّف نبضُ الحياةِ في أعينهم، وإن استمرَّ نبضُ القلبِ في الخفقان، تتناسَل أوجاعُهم صباحَ مساء بين جدران ذاك الملاذ الذي آوَوا إليه قسْرًا، فرارًا من غدْر قريبٍ أو حبيب، لائِذين بحِمَاه وقدْ جفاهم حضنٌ كان بالأمسِ القريب يَرْتوي من فَيض دفئهم وحنانهم.

أيُّ دمعٍ يعبِّر عن ذاك الضَّنك؟ وأيُّ قاموسٍ يستوعب تلك الحكايات؟ دُورُ العَجَزَة فصلٌ من فصول الخِزي، ومظهرٌ من مظاهر العقوق الممقوت، وصمةُ عارٍ في جبينِ ذاك النَّذل السادِر في غيِّه، الذي استكانَ للدنيا وملذَّاتها، وأساخ السمعَ لهواه وأَعْرض عن جنَّته وأُخراه. كم تبدو الحياةُ

سخيفةً وأنت تبصر هذه النهايات الأليمة التي جعلَت هؤلاء النُّزلاء حبيسي جدرانٍ صامتة، ينتظرون بشغفٍ زياراتٍ من هنا وهناك تُنسيهم جحودَ الأبناء وقهرَ الأقرباء، يشتاقونَ لهدايا تُشعرهم بكَيْنونتهم، يتلمسون دِفْء الحنان في عيونِ الزوَّار، ويرتمون عطشى لأحضانٍ لا يعرفونها، شمسٌ ينتظرون إشراقَتَها كلَّ حين، عساها تُبدِّد ظلمةً دامسة تفتِك بهم في خلواتهم، تقرأ في عيونهم فرحةً عند اللقاء، وحزنًا وأسًى عند الفراق، يسرقون مِن الزمن بعضَ الضَّحكات وهم بين زوَّارهم، يرقصون ويمرحون بعفويَّة وطفوليَّة، وكم تأخذك الدَّهشةُ حين تستمع لكلامِهم فتجده متراصًّا منظومًا! فتزداد حيرتُك وتردّد في صمتٍ قاتل:

كيف جار الزَّمن على أمثال هؤلاء؟!

فاللهَ الله في عَجائزنا!



كلُّ شيء فيكَ يحتضر

امتنّ الله علينا منذ البدء فخلقنا بشرًا أسوياء، وأودع فينا فطرة سليمة نقية نزَّاعة إلى كل ما هو جميل، نافرة من كل ما هو قبيح، فما بالها اليوم اعوجت اعوجاجا يكاد يذهب بالألباب؟

لقد بِتنا نسمع مؤخرًا عن جرائم أخلاقية يستحيي القلم أن يسطّر بعض فصولها، جرائم تؤكد أن كل القيم الأخلاقية والإنسانية قبل الإسلامية تحتضر عند الكثير منّا..

ما معنى أن يعتدي الأب على ابنه ويقتله ويرمي بجثته للكلاب تنهشها ثانيًا بعد أن نهشها هو أولًا؟

وما معنى أن يعاشر الرجل ابنة أخته عِقدًا من الزمن ويُصرَّا على جريمتهما حتى بعد اعتقالهما؟

وما معنى أن تخون الزوجة زوجها مع شقيقها؟... أليست هذه حقارة يستنكف منها حتى الحيوان؟

إنه ناقوس الخطر الذي يجب أن يُقرع بشدة ليوقظ الغافلين من غفلتهم، قبل أن تتفشى الظاهرة وتصبح أمرًا مستباحًا كغيرها من المحرمات التي أضحت المجاهرة بها حقًّا إنسانيًّا وبابًا من أبواب حرية التعبير أو حرية الممارسة الجنسية.

صحيح أن زنا المحارم ليس أمرًا حديثًا، وأن جذور الظاهرة قديمة ترجع إلى عهد الفراعنة، لكن وجودها في مجتمعات إسلامية تحكمها قيم ومبادئ محددة يجعلنا نطرح آلاف التساؤلات حول هذا الموضوع.

وإذا كانت العوامل الاجتماعية والنفسية وحتى الاقتصادية تلعب دورًا مهمًّا في كسر حاجز التحريم الجنسي والجرأة على تفريغه في اتجاهات مرفوضة دينيًّا وعُرفيًّا، فإنه- في اعتقادي- يبقى غياب الوازع الديني عند الكثير من هؤلاء أهم مسبب لمثل هذه الجرائم الأخلاقية.

هل يمكن أن يجرؤ من يستحضر ربّه ويعِي ضوابط العلاقات الأسرية على انتهاك هذه القوانين الربانية التي ما سطرها الحق سبحانه إلا حماية لنا ولنسْلنا؟ أكيد لا؛ لأن هناك حصانة ربانية منبعها روح إيمانية قادرة على كسر أية شهوة شيطانية، لكن غياب هذا الوازع يفتح الباب على مصراعيه لكل الخبائث والموبقات الشيطانية.

ولو استحضرنا بعض تعاليم ديننا الحنيف لأيقنّا أن الله تعالى ما فرض هذه القوانين إلا حماية لنا من الوقوع في مثل هذه السلوكيات المشينة.

ألم يأمرنا نبينا ﷺ بالتفريق بين الإخوة والأخوات في المضاجع فقال ﷺ: مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع" قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

ألم يؤدّبنا ربّنا بأدب الاستئذان على الوالدين قبل الدخول عليهما وذلك في ثلاث أوقات خاصة فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (النور: 59/ 58). أليس في هذا تدريبٌ منذ الصغر على حماية الصبي من أي مثيرات جنسية؟

إن الأوبة الصحيحة إلى دين الله هي صمّام الأمان وطوق النجاة في ظل المثيرات الجنسية التي تحفّ شباب الأمة وشيبها بل وأطفالها، والحرص على بناء الأسرة بناء سليمًا يبتدئ بحسن الاختيار لكلا الطرفين بناء على الدين وحسن الخلق، وتربية النّشْء تربية إسلامية تُراعي التربية الجنسية بشكل لا يخرج عن نطاق الأدب الإسلامي. مع الأخذ بعين الاعتبار أن مثل هذه السلوكيات الشاذة لن تكون إلا وبالًا على الأمة ولن تنشئ إلا جيلًا مشوهًا خِلقيًّا كما أكدّت ذلك الدراسات العلمية؛ حيث "قام الباحثان آدم ونيل "1967" بتتبع حالة 18 طفلًا كانوا ثمرة زواج محارم فوجدا أن خمسة منهم قد ماتوا، وخمسة يعانون من تخلف عقلي، وواحد

مصاب بانشقاق في الشفة وسقف الحلق، وهي نسبة مفزعة خاصة إذا عرفنا أن العيوب الخلقية في عامة الأسوياء حوالي 2٪ وأغلبها تكون عيوبًا غير ملحوظة؛ لذلك خلص هذان الباحثان إلى أن زنا المحارم لو انتشر فإنه يمكن أن يؤدي إلى انتهاء الوجود البشرى من أساسه، وربما يكون هذا جزء من الحكمة من التحريم الديني والتجريم القانوني والوصم الاجتماعي"- نقلًا عن الموسوعة الحرة -.



إليكِ أختي المسترجِلة

أختي الأنثى،

نعم الأنثى.. تلك صفتك التي ارتضاها لك ربّ العزّة.. ولو شاء أن تكوني غير ذلك لَفَطرك وسوَّاك كما يشاء.. ولكنه سبحانه قدّر أن تكوني أنثى، ويكون هو رجلًا، ولولا هذا التنوع البشري ما استمر النسل ولا استقامت الحياة.

فَلِمَ هذا التمرد المنافي للفطرة أخيتي..؟

لمَ هذا الاعتراض على آية من آيات الله الكونية ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ﴾ (الروم: 21)

ألمْ تفطني إلى أنّ هذا التنوع طبيعة كونية، وأنّ أنوثتك ليست سُبَّة ولا نقيصة حتى تتجردي منها أو تتبرئي من الانتساب إليها؟ فَخْرٌ لكِ أن تكوني أنثى.. وفخرٌ له أن يكون رجلًا، ولا استقامة للحياة بدونكما.

أنت أنثى.

الرقة طبعك، والعاطفة والحنان جزء من خِلْقتك، وما تمردكِ عليها إلا خروج غير محمود عن سنن الكون، يمُجُّه كلّ ذي ذوق سليم. ولا

يغرنّك ما يقوله بعض الشواذ الذين فسدتْ فطرتهم، وزاغت بصائرهم. واعلمي أن ما خِلتِه يومًا ضعفًا فيك هو مصدر قوة لكِ، فكم أَلاَنَتْ هذه العاطفة قلوب الجبابرة، وكم انكسر أمام عتبتها أعتى الرجال، فلا تستصغري نفسك.

ما لَكِ وللرجل.. ولبس الرجل.. ومشية الرجل.. وخشونة الرجل، ألم يصفع أذنك ذاك الوعيد الشديد بالطرد من رحمة الله لكل من انسلخت من أنوثتها وارتدَت جُبّة غير جُبتها؟

اسمعي أخيتي ما قال رسول الله ﷺ: "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال" رواه البخاري.

يقول الشيخ ابن باز- رحمة الله عليه-:"اللعن من باب الوعيد والتحذير، وقد يسلم الرجل من العقوبة بأعمالٍ صالحة أو بتوبةٍ صادقة، وهكذا المرأة قد تسلم من العقوبة بتوبةٍ صادقة أو أعمالٍ صالحة، لكن المقصود من اللعن التحذير، فلا يجوز للرجل أن يتشبه بالكفار ولا بالنساء، والمرأة كذلك، ليس لها التشبه بالرجال ولا بالكفار، لا في الزيّ ولا في الكلام، ولا في المشي".

وعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- قالت: "لعن رسول الله ﷺ الرَّجُلَة من النساء" رواه أبو داود، والرجلة هي التي تتشبه بالرجال في هيئاتهم وأخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم.

والأمرّ والأدهى أخيتي ما جاء في هذا الوعيد الذي يهتز لِهَوْله كل فؤاد:"ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالديه والمرأة المترجلة والديوث" رواه النسائي.

قد يخامركِ استفهام فضولي لمَ كل هذا التهويل؟

فأقول لكِ: لأنكِ بترجلك تعترضين على مشيئة ربك، فلا ترضين بأنوثتك ولا تفتخرين بجِنسك.. بترجلك قد تنساقين إلى كل رذيلة، وقد أبصرتِ اليوم أنواع الفتن التي تتخبط فيها النساء من شذوذ جنسي، واقتراف لجرائم أخلاقية يندى لها جبين العفيفات، فأي مَغنم لك أختي في هذا الترجل؟ وكيف تبيعين رضا من خلقك فَسَوَّاكِ برضا من لا يملك لنفسه جلبَ نفعٍ أو دفع ضرٍّ؟

أفيقي حماكِ الله، واعلمي أن الدنيا مهما طال أمدها فهي إلى زوالٍ، ولن ينفع المرء يوم العرض الأكبر إلا ما قدمه من طاعة وما تقرب به إلى ربه من رضا عن قضائه وتسليم تامٍّ لمشيئته.

لا تتعقبي طريق الغربيات السافرات، فهنّ قد عقدْنَ قرانهن بهذه الدنيا الفانية، ولا شريعة تحكمهنّ، إلههن هواهنّ، وجنّتهن متعتهنّ، ونارهنّ مفارقة شهواتهنّ، احذري كما قال الرافعي: "خجل الأوروبية المترجلة من الإقرار بأنوثتها.. إن خجل الأنثى يجعل فضيلتها تخجل منها.. إنه يُسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية.. إن هذه الأنثى المترجلة

تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى.. والمرأة تعلو بالزواج درجة إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحط درجة إنسانية بالزواج.. أيتها الشرقية: احذري.. احذري".

مستنقع الرذيلة يفتح أبوابه أمام ترجلك، والشيطان يتربّص بك الدوائر، فلا تكوني له خير معين، وتذكري أن جمال الأنثى في أنوثتها وجمال الرجل في رجولته.. هما جنسان لا ثالث لهما. ومن شذّ شذّ في النار.



محبة الرسول ﷺ بين العادة والعبادة

كثير من العبادات حين تفقد روحها تغدو مجرد عادات استأنست النفس بها وباتت تشعر بالحرج في التخلي عنها، وحب الرسول ﷺ غدَا للأسف من هذا القبيل. فكل مسلم يحب الرسول ﷺ، ولكن قليل من يفِي بحقّ هذا الحبّ وما يلزمه من اتباع دون ابتداع. إن صورة الرسول ﷺ كما قال محمد قطب تعاني "في قلوب مسلمي اليوم عزلة وجدانية عميقة، حيث أضحى حبهم للنبي ﷺ قابعًا في نفوسهم، دون أن يكون له ذاك التأثير الذي كان للسلف الصالح، ودون أن يتجسد بكل مقوماته في حياتنا اليومية". وقد بسط محمد قطب بعض الأسباب التاريخية لهذه العزلة في كتابه القيم "قبسات من الرسول ﷺ" فقال : "في عهد أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- لم يكن هناك حديث عن العزلة؛ لقرب العهد بالرسول ﷺ، فكانت ذكراه لازالت حيّة في نفوسهم وتعاليمه وأقواله لازالت دستور حياتهم. فاستمر بذلك إحساس المسلمين بوجود الرسول ﷺ بينهم وإنْ غابت عنهم ذاته الشريفة. ثم جاء عهد عثمان- رضي الله عنه- فسار على منوال

صاحبَيه ما استطاع، لكن سرعان ما أطلّت الفتنة مُنذرة بتمزيق واهتزاز في وسط الأمة، فبدأ الناس يشعرون بافتراق الطريق وأخذت الصورة المتكاملة للرسول صلى الله عليه سلم تنحسر شيئًا فشيئًا إلى داخل النفوس بعد أن كانت ملْء النفوس وملْء الحياة في ذات الوقت. وبتوالي الأحداث وتتابع الفتن بدأت تتسع الهوة بين واقع الأمة المشهود وبين تعاليم الرسول ﷺ، وبدأت معها صورة الرسول- ﷺ- تبتعد عن واقع المسلمين، وتنحسر في قلوبهم ووجدانهم بشكل سلبي، وتأبى أن تغير الواقع المريض والشرور المتفاقمة. إلا أن العزلة التامة والمخيفة تمت وبسَطَت سمومها منذ أن بعُد الحكم والمجتمع كلاهما عن الإسلام، وصارَا تابعين للغرب يسيرًا وفق ما شاء. فغدَا المجتمع صورة متحللة فاسدة لا هي إسلامية كما كانت ولا هي نسيجٌ واحد متميز، وإنما هي مسخ مشوه لا وحدة له ولا كيان، وهنا ويا للأسف والضياع الجسيم لم يعد الرسول- ﷺ- موجودًا في واقع الحياة، لم يعد كيانًا شاخصًا بتعاليمه وتوجيهاته، وانحصر في مشاعر الناس، وغدَا صورة مثالية يطالعها الناس لكن لا ينفعلون بها"اه.

وسط هذه العزلة سعى المسلمون لبعث الحياة في هذا الحبّ والتعبير عنه بصور شتىّ مُبتدعة، بعضها استحسنه العلماء، والبعض الآخر كان أقرب للضلالة منه إلى الهدى، ومن هذه الصور الاحتفال بذكرى ميلاده ﷺ والذي أضحى عيدًا سنويًّا استحسنه بعض السلف كالإمام "أبو شامة" شيخ

الإمام النووي الذي قال:"ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يُفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مُشعر بمحبته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكر الله على ما منّ به من إيجاد رسوله ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين". لكن كما هو ملاحظ اليوم فحتى هذه البدعة وإن استُحسنت من قبل فإنها اليوم قد أُفرغت من دلالتها لأن الذكرى أضحت فرصة للاحتفالات غير الشرعية حيث التبذير والإسراف في الحفلات، وبدعٌ في الدين ما أنزل الله بها من سلطان.

من الأمور المبتدعة كذلك في التعبير عن محبته ﷺ؛ ما جرت عليه عادة كثير من الناس في القيام عند ذكره ﷺ تعظيمًا له، وهذا القيام كما قال برهان الدين الحلبي "بدعة لا أصل لها". وقد وُجد القيام عند ذكر اسمه ﷺ من الإمام تقي الدين السبكي، وتابَعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره. فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده كثير من علماء عصره، فأنشد منشد قول الصرصري في مدح الرسول ﷺ:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب ... على ورق من خط أحسن من كتب

وأن تنهض الأشراف عند سماعه ... قيامًا صفوفًا أو جثيًا على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي وجميع من في المجلس، فحصل

أنس كبير بذلك المجلس.- كما ذكر برهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية-.

وغنيٌّ عن الذكر فعل الصوفية في هذا الباب وما ابتدعوه من سبل للتعبير عن مقام الحب. إذ الحب عندهم فناء المحب في المحبوب، ولما ادَّعوا سَفَهًا الاتحاد بالله والفناء فيه؛ لم يستعصِ عليهم القول بالاتحاد بالرسول صلى الله عليه سلم والفناء فيه بدعوى محبته. فلا يكفي في نظرهم الاقتداء بالرسول ﷺ في أفعاله وأخلاقه، بل تاقت نفوسهم إلى دوام حضوره معهم، فادَّعى المريدون رؤيته في شتى الصور في النوم واليقظة. ولهم طرق خاصة في التعبير عن المحبة كإقامة حلقات الذكر وما يصحبها من تعذيب للبدن أو حبس للنفس وغير ذلك من الأمور التي تجعل الصوفي يفقد الشعور تدريجيًّا ويقع في حالة تشبه الغيبوبة، وأحيانًا يصاحب حفلات الذكر الموسيقى والغناء، وتتدرج هذه الطرق حتى تصل إلى درجة الفناء؛ حيث يبطل شعور المتصوف بكل ما حوله ويخيل إليه أنه قد اتّحد بمحبوبه. ولعل المتفحص اللبيب يستطيع أن يجزم بغلو هذه الطائفة وبُعد طقوسها عن النهج المحمدي القويم.

لكن الأدهى والأمرّ ما تمّ ابتداعه من أشكال حديثة في عصرنا من خلال ما يسمونه "فنًّا إسلاميًّا" يعرض السيرة النبوية عبر مسلسلات

وأفلام دينية، بأساليب تتنافى وقيمنا الإسلامية، ومن قِبَل أشخاص فقدوا كل "مصداقية"!!

"إن ما حدث ويحدث ليعتبر جرمًا عظيمًا وزيغًا عمَّا أراده الله عز وجل للبشرية.. إن الله سبحانه وتعالى لمّا أوجب محبة المصطفى ﷺ أراد بها تلك المحبة الإيجابية المثمرة التي تخفق بذكر المحبوب، لكن أيضًا ترفض سجنه في قفص وجدانها بل تسعى جهد ما تستطيع إلى تشخيص صورة الحبيب ونشر مبادئه وتعاليمه حتى تصبح صورته ملْء النفوس وملْء الحياة في ذات الوقت"- كما يقول محمد قطب.

إن محبة الرسول ﷺ فرض وواجب على كل مسلم، بل إن المسلم مطالب بأن يكون الرسول الكريم ﷺ أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين. قال عليه الصلاة السلام:" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

وقد جمع النبي- ﷺ- في هذا الحديث أصناف المحبة وهي ثلاثة كما ذكرها ابن بطال فيما نقله عنه الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم:" محبة إجلال وعظمة كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة استحسان واستلذاذ كمحبة سائر الناس".

والمتتبع لكلام السلف يستقر في فؤاده وعقله أن محبة الرسول- ﷺ- ليست

مجرد مشاعر تتحرك بها نياط الفؤاد، بل هي مقام أعلى وأسمى ولهذا قيل "محبة الرسول ﷺ اعتقاد نصرته والذبّ عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته". وهذا ما فقهه الصحابة الكرام فسطّروا تاريخًا مُبهرًا في علاقتهم بقائدهم وحبيبهم صلى الله عيه وسلم، وتفانوا في الدفاع عنه واسترخصوا لأجله نفوسهم وأموالهم وأهلهم، وحققوا بذلك المعنى الحقيقي لمحبة المصطفى ﷺ؛ ألا وهو: اتباعه والانقياد له والتخلق بأخلاقه والحفاظ على سنته.

بَيْد أن الناس يتفاوتون في الإحساس بهذه المحبة- كما ذكر ابن حجر في فتح الباري:" فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقًا في الشهوات محجوبًا في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذُكر النبي- ﷺ- اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤْثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة.. لما وقر في قلوبهم من محبته غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات" اه.

واتباع الرسول ﷺ كما ورد في شرح العقيدة الطحاوية "واجب ديني، إذ اتباعه اتباع لشرع الله، وطاعته طاعة لله عز وجل، ومعصيته معصية لله سبحانه، وكل من أراد أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ﷺ فإنه يكون مخالفًا لشرع الله تعالى؛ لأن ما جاء به الرسول ﷺ

كان كافيًا وكاملًا يدخل في كل حق، فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق مادام الخبر صحيحًا موثوقًا به، وأن لا نعارضه بخيال باطل، أو نحمله شبهة، أو شكًّا أو نقدم عليه آراء الرجال، وأن لا يوقف بعضنا تنفيذ أمره وتصديق خبره حتى يعرضه على قول شيخه وإمامه، فإن أذن له نفذه وقبِل خبره وإلّا فلا".

وقد ميز العلماء في مسألة اتباع الرسول- ﷺ- بين أفعال النبي- ﷺ- وصنفوها إلى مجالات ثلاث أذكرها اختصارًا للفائدة:

❋ أعمال مرتبطة ببيان الشريعة كصفة صلاته وصومه وحجه فهي تعتبر شرعًا ويجب العمل بها، وأدرج العلماء في هذا القسم ما فعله الرسول- ﷺ- ابتداء مما لا يكون بيانًا لمُجمل ورد في القرآن، وهذا النوع إما أن تعرف صفته الشرعية من الوجوب والندب أو لا تعلم، فإن عُلمت فالأمة مثل الرسول- ﷺ- ويجب الاقتداء به. وإن لم تعلم صفته الشرعية فإما أن يظهر فيه قصد التقرب إلى الله عز وجل أوْ لا، فإن ظهر قصد القربة أفاد استحباب الفعل كصلاة ركعتين من غير مواظبة، وإن لم يظهر قصد القربة كالبيع والشراء كان مفيدًا للإباحة على القول الراجح.

❋ أفعال من النبي- ﷺ- قامت الأدلة على اختصاصها به كالوصال والزيادة على أربع زوجات وفرضية التهجد، فهذه الأفعال ليست أمته مثله ولا يقتدى به فيها.

* أعمال يعملها بمقتضى الجِبِلّة البشرية: كالقيام والقعود والأكل، وما كان يتناول من حلال وطرق التناول، وكذلك ما كان يفعله بمقتضى العادات الجارية في بلاد العرب كلبسه ونحو ذلك. فحكم هذا النوع أن الأمة ليست ملزمة فيه بالاقتداء والاتباع؛ لأنها أفعال صدرت عن الرسول- ﷺ - باعتباره إنسانًا لا باعتباره رسولًا يجب اتباعه، ومع ذلك فقد كان أكثر الصحابة يقتفي آثار الرسول- ﷺ- ويحرص على متابعته في مثل هذه الأفعال كعبد الله بن عمر- رضي الله عنه-؛ ولذا فحكم هذه الأفعال الندب لأن الأخذ بها أخذ بأفضل الحالات وأحسن الأساليب "هذا ما ورد اختصارًا في كتاب الميسر في أصول الفقه".

جملة القول في هذا المقام أنّ حب النبي- ﷺ- قُربة نتقرب بها إلى ربنا، والذَّوْد عنه في ظل الهجمات الشرسة من أعداء الدين لا ينبغي أن يبقى ردّ فعل يستفيق كلما جدّ فعل من "الآخر"، بل ينبغي أن نُفَعِّلَ هذا الحب فنحْيي سنة نبينا في كل أمور حياتنا: في سلوكنا ومعاملاتنا، في بيوتنا وشوارعنا وأماكن عملنا، في إعلامنا وكتاباتنا وكل نبض في حياتنا. حينها سيعلم العالم من هو قدوتنا ومن هو معلمنا ومن هو حبيبنا بعد ربنا سبحانه.

ولْتَفرح أيها المحب بهذه البشارة. عن أنس- رضي الله عنه- أن رجلًا أتى النبي- ﷺ- فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة.. ولكني أحب الله ورسوله. فقال الرسول- ﷺ: أنت مع من أحببت".

ولا أخالك أخي المسلم تأبى دخول الجنة ومرافقة الرسول- ﷺ، فالْزم طاعته واسمع وصيته: "كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله!؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" أخرجه البخاري.



الحــــــبُّ
عند الحبيب المصطفى ﷺ

وأنت تطالع كتابات المبدعين اليوم شعرًا ونثرًا، وتتابع ما يسمونه "أعمالًا فنية إبداعية" من أفلام ومسلسلات تجد الكل منغمسًا في الحديث عن الحب، فقد أضحى في عصرنا مخدِّرًا فتّاكًا للعقول، ومُهَيِّجًا فعالًا للفتن في القلوب، ومُفتِّرًا قويًّا لهمم الصغار والكبار، ويا ليت قومي فقهوا معنى هذه الكلمة لَما كان هذا حالنا، بل نحن لا نرى إلا قصورًا في فهمها، وتمييعًا لقيمتها، وتضليلًا للعباد بها.

فما إن تُذْكر كلمة "حبّ" حتى تحلّق رياح التأويل صوْب علاقة الرجل بالمرأة. وهذا اعوجاج شديد في الفهم أنتج شخوصًا واهية لا تبحث إلا عن اللذة والمتعة الجنسية ولو في الحرام.

ولأن الحبيب المصطفى أسوتنا وقدوتنا وَجَبَ البحث في سيرته العطرة لنهتدي على بصيرة ونعرف كيف كان تعامله- ﷺ- مع هذه القيمة الإنسانية العظيمة. وإن كانت الحروف تقف خجلى أمام جلال الموقف وجمال شخص الحبيب ﷺ.

لقد تناولت أقلام علمائنا الأجلاء هذا الموضوع بالدراسة والتمحيص، فكانت كتاباتهم النبراس الذي يضع الحب في نطاقه الشرعي بعيدًا عن خيالات القصاصين والشعراء، وإفك الدجالين والخرَّاصين، وقد امتنّ الله عليّ فكان موضوع بحث الإجازة يتناول هذا الجانب الإنساني العظيم في حياة الرسول ﷺ حيث عنونتُه بــ "جوانب المحبة في سيرة الرسول ﷺ"، وقد عنَّ لي كتابة مقال في الموضوع اعتمادًا على ما وصلتْ إليه نتائج البحث؛ لأضع بين يدي القراء الكرام زبدة القول وخلاصته في هذا الباب.

إن المحبة نعمة عظيمة امتنّ الله بها على عباده فهي "قُوت القلوب وغذاء الأرواح وقُرّة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات"- "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للقسطلاني 117/ 2

ورغم التعاريف الكثيرة التي قيلت عن المحبة قديمًا وحديثًا فإن الدارسين لم يحددوا تعريفًا دقيقًا لها، لأنها كما قال أبو جعفر الطحاوي- رحمه الله- "لا تُحدّ بحدّ أوضح منها فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب ونحو ذلك"."شرح العقيدة الطحاوية" ص.165

أو كما قال ابن قيم الجوزية- رحمه الله- في "مدارج السالكين": "حَدُّها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة".

ولذلك دارت تعريفات العلماء لها على ستة أمور: أسبابها، موجباتها، علاماتها، شواهدها، ثمراتها وأحكامها.

والحب عند الرسول- ﷺ- لم يكن شهوة بل كان فطرة جُبل عليها منذ كان طفلًا ففتى فكهلًا، كان قلبه فيّاضًا بالمشاعر النبيلة لكل من حوله وهذا ما ألان عود كل جبار، وأبدل مشاعر الكُره حبًّا عند الكثير ممن عاصروه وعايشوا جميل خصاله ﷺ "فكَمْ من أعرابي فدْم لا أدب له ولا فهم ولا عقل ولا علم ولا كرم ولا حلم، قابَلَ جنابه الشريف بما غضب له المكان والزمان وخاطبه بما عبس له السيف واحتدّ له اللسان فكان جوابه الإغضاء، والعفو عمن أساء... فتبدّل بُغضه بالحب وبُعْده بالقرب.. واستحال إنسانًا بعد أن كان ثعبانًا وصار حبيبًا بعد أن كان ذيبًا"- "وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ" للشيخ النبهاني ص.22

والحب عند الرسول رفيقُ دربٍ في كل شؤون الحياة، فوراء كل سلوك يسلكه أو منهج يقرره أو كلمة ينبس بها تستشف قلبًا نقيًّا نابضًا بالحب لكل من حوله، وما كان الحب يعطله عن أداء واجباته، بل كان الوقود الذي يحفزه لإتقانها والإقبال عليها جدلانَ مبتهجًا، فكان يمارسها ممارسة مُحبّ مفطور، لا ممارسة مكلَّف مأمور.

وبذاتِ الحب كان يتحمل أذى المشركين وجفاء وغلظة بعض السفهاء من أمثال أبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط، ولو كان قلبه يعرف الكُره والانتقام

لاستجاب لأمر جبريل عليه السلام حين قال له ذات محنة: "إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملَك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملَك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟

إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين"، لكن الرسول ﷺ المحب العطوف قال "كما رُوِي عنه": "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا". -صحيح مسلم-

وأعظم مظاهر الحب تجلّت في حب الرسول ﷺ لربّه سبحانه، هذا الحب الذي سكن كل ذرة في كيانه، وكان يدفعه حتى قبل البعثة إلى الخلوة بهذا الفاطر المبدع المنزَّه عن الشريك، حبٌّ تجلى في تفانيه- ﷺ- في عباداته فكان في كلامه وصمته، في حركته وسكونه، في نومه ويقظته، بل في أنفاسه- ﷺ- يعبد الله عز وجل لا يفتر لسانه عن ذكره واستغفاره، حبٌّ اتضحت ملامحه في غضبه عند انتهاك حرمات محبوبه، وصبره وتحمله للأذى في سبيل أن تبقى كلمة الله هي العليا، أوَ لم يقلها الحبيب- ﷺ- في عزّ محنته "إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي"، فما تساوي الدنيا إن غضب الله عليك وجرّدك من رداء محبته لك؟

أما حياته العائلية فقد كانت قصة أخرى من قصص الحب المثمر الذي يُكسب المرء رقيًّا روحيًّا وقربة إلى الخالق وليس نفورًا منه، كما قال ابن

قيم الجوزية :"لا عيب على الرجل في محبته لأهله.. إلا إذا شغله ذلك عن محبة ما هو أنفع له من محبته لله ورسوله وزاحم حبه وحب رسوله، فإن كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة، وإن أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة " " إغاثة اللهفان" (129/ 2).

وقد بلغ من حبه لأمنا خديجة – رضي الله عنها– أنه لم يتزوج غيرها إلا بعد وفاتها، وكان كثير الذِّكْر لها بعد ذلك حيث قالت أمنا عائشة– رضي الله عنها–:"ما غِرْتُ على امرأة لرسول الله كما غِرْت على خديجة، لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله إياها وثنائه عليها"– صحيح البخاري–، فقد ذاق معها طعم الحياة الزوجية مريئًا، لهذا بقي– ﷺ– وفيًّا لذكراها حتى بعد زواجه بغيرها، وما كان يفتر عن الثناء عليها والاستغفار لها.

كما أن علاقة الرسول– ﷺ– بالسيدة عائشة جسّدت مظهرًا آخر جميلًا للحياة الزوجية المبنية على الحب المتبادل والانسجام والنشاط في السفر والحضر، فذات يوم كانت عائشة مع رسول الله في سفر فسابقها الرسول ﷺ، قالت: "فسبقته على رجلي"، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: "هذه بتلك" "السيرة الحلبية" (602/ 2)

ومن لطيف ما يروى في إعرابه– ﷺ– عن حبه لعائشة وتمسكه بها قوله لها: "كنت لك كأبي زرع في الألفة والوفاق لا في الفرقة والخلاء"،

فقالت عائشة: "يا رسول الله، بل أنت خير لي من أبي زرع" - "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد" للقاضي عياض "ص:12-11"

وسقى نبع الحب المحمدي قلوب فلذات أكباده وأحبابه، فكان شديد الحنو عليهم خاصة زهرة البيت النبوي فاطمة التي قال عنها الرسول- ﷺ- "إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها"- صحيح مسلم-.

وما فتئ ﷺ يداعب الحفيدين الغاليين الحسن والحسين ويقول مُشهدًا خالق الكون بحبهما: "اللهم إني أحبهما فأحبهما"- صحيح البخاري.

كما لم يبخل الرسول الكريم ﷺ بحبه عن باقي أهله كجده عبد المطلب الذي كفله ورعاه منذ صباه، وعمه أبي طالب الذي وَجَد عليه كثيرًا حين توفي حتى سمّى ذاك العام "عام الحزن"، ثم عمه حمزة أسد الله الذي كانت فاجعته فيه أكبر حين مثَّل به كفار قريش في غزوة أحد. وابن عمه عقيل بن أبي طالب الذي قال له: "يا أبا يزيد إني أحبك حبين، حبًّا لقرابتك مني، وحبًّا لما كنت أعلم لحب عمي إياك" "السيرة الحلبية " "1/ 432"، وهكذا شأنه ﷺ مع سائر أهله.

وحين نذكر صحبه الكرام يقفز للذهن حبه لرفيقي دربه الصّدّيق والفاروق ولصهريه المبجلين علي وعثمان، ولن ننسى الصحابيين الجليلين اللذين غدا الحب النبوي لهما صفة تتناقلها الأجيال ويغبطهما عليها كل لبيب وهما زيد بن حارثة وابنه أسامة، فكان الأول: "حِب الرسول ﷺ"، وكان الثاني: "الحِبّ بن الحِبّ".

روي عن عبد الله بن عمر– رضي الله عنهما– أنه قال: "بعث النبي ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: "إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإنّ كان لمن أحب الناس إلي، وإنّ هذا لمن أحب الناس إلي بعده"صحيح البخاري.

وامتدّ الحب النبوي ليشمل الجمادات، فكان ﷺ يحب مكة مسقط رأسه ومحضن نشأته وأول من لبّى من أهلها دعوته، وأحبّ الرسول ﷺ كذلك جبل أُحُد فقال فيه: "أُحُد جبل يحبنا ونحبه"– صحيح البخاري–، وقد علّق ابن الأثير على هذا بقوله: "هذا محمول على المجاز، أراد أنه جبل يحبنا أهله ونحب أهله وهم الأنصار، ويجوز أن يكون من باب المجاز الصريح أي أننا نحب الجبل بعينه لأنه في أرض من نحب".

وقال علي بن برهان الدين الحلبي "لا مانع أن تكون المحبة من الجبل على حقيقتها، وضع الحب فيه كما وضع التسبيح في الجبال المسبحة مع داود عليه السلام، وكما وضعت الخشية في الحجارة التي قال فيها سبحانه: ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ "السيرة الحلبية" "487/ 2".

وهكذا كان الحب في حياته فطرة وطبعًا متأصلًا ولم يكن شهوة عابرة كما يدعي الحاقدون. كان سلوكًا نابضًا بالوفاء باعثًا على الحياة باسطًا أجنحة العطاء دون قيود، كما أن الرسول ﷺ لم يكن يستنكف عن التعبير

عن مشاعره كما يفعل الكثير من المتدينين اليوم، فكان يحدِّثُ زوجاته بمشاعره ويتباسط معهن، ويلاعب أحفاده ويمازحهم، ولا يخجل من التعبير عن حبه لمن وجبت محبتهم. فالبيت النبوي أساسه الحب الصادق الذي غلّف كل عبادات النبي ﷺ ومعاملاته مع القريب والغريب، حب جعله أكثر مسؤولية أمام خالقه أولًا وأمام الناس ثانيًا.



عِبرة

لأن الأمرَ جللٌ كان الوحي يؤشّر لحدوثه ويستبقُ نزوله لتتأهبّ النفوسُ لاستقباله، وتَثْبُت الأقدام من وقع زلزاله. فمهدّ له ربّنا بقوله: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾ (الزمر:30) وثنّاها بقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُم الْخَالِدُونَ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾(الأنبياء: 34). فالروح النقية والجسد الطاهر الذي يحيا بينكم ليس إلا بشرًا مثلكم، تسري عليه سنن الكون التي لا تُحابي أحدًا مهما علا شأْنُه وعظُم مقامه، والرحيل نتيجة حتمية لكل حيٍّ سِوَى الواحد الأحد. هو حبيبكم وسيدكم ونبيكم وإمامكم لكن رحيله من بينكم قد أظلكم زمانه فتهيأوا لذلك.

وليقينه- ﷺ- بمكانته العظيمة في قلوب صَحْبه؛ كان بين الحين والآخر يُشعرهم بدُنُو أجله، فيقول لمعاذ- رضي الله عنه- ذات مرة: "يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا أو قال: لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري" ويقول للناس في موقف آخر: "لعلي لا أراكم بعد عامي هذا"، ويوحي لأبي مويهبة بأمر تخييره؛ فيقول: "إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله"

ومع هذه الإرهاصات كان لحدث وفاة النبي- ﷺ- وقع الصدمة التي أذهلت

الناس وأصابتهم بالوجوم. موقف اهتزّ له أشد الرجال قوة وصلابة: الفاروق عمر- رضي الله عنه-، الذي انتابته حالة من الهلَع زعزعتْ كيانه العظيم لِلَحظة وهو القويُ عقيدة، الراجحُ عقلًا، الشديدُ عزيمة. فكم هو أليم أن تفارق من أحببت وتواريه الثرى، فكيف إن كان هذا الغائب سيد المحبوبين وإمامهم ﷺ.

هذا الموقف الجلَل وإن لم نشهده فإنّ قلوبنا تتفطّر له كمدًا، وتذوب النفس من هول أشجانه، وكمْ نُعظم في الصحب الكرام ثباتهم فيه، وإن كنا نغبطهم على شرف الصحبة.

لكَ أن تستحضر حال " أمّ أبيها" وهي تودّع والدها الحبيب، لك أن تتخيّل حجم الغمّ الذي اكتنفها وهي تساير ركب الحياة بعيدًا عن تلك الأنفاس الزكية التي كانت تعطر حياتها وتُبلسم جراحها. لكَ أن تنظر لزوجاته وقد غاب رفيق الدرب عنهن. لك أن تستشعر حالة اليُتْم التي استشعرها كل المسلمين بفقد الحبيب المصطفى ﷺ.

إنه وربّي حدث جلَلٌ تهتز له الأفئدة كلّما حاولت الغوص في تفاصيل أحداثه ودقائقه الأخيرة.

فاللهم لا تحرمنا رؤيته في الآخرة وقد قدّرتَ علينا بحكمتك عدم مصاحبته في الدنيا.

" طبت حيّاً وميّتاً يا رسول الله"

فهرس الكتاب